مصطفى محمود

هل هو عصر الجنون

دار المعارف

هل هو
عصر الجنون

مصطفى محمود

هل هو عصر الجنون



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

لحظة حب

لولا تجلى ربنا على مخلوقاته لما كان هناك شىء يستحق الحب فى الدنيا على الإطلاق .. لاوجه ولاصوت ولاصورة ولامذاق ولاسلوك ولافعل ولاكلمة ولانغمة .. فالله هو نور السموات والأرض .. فهو النور الذى نراه فى الوجوه فنحبها ، وهو نور العقول ونور الضمائر ونور البصائر وهو الحق وهو العدل .. فهو مانحب فى كل أفعالنا من حق وعدل .. وهو الجمال الذى يسبى فى كل طلعة جميلة وهو البهاء الذى يخطف القلوب فى كل حضرة بهية .. فهو سبحانه مانحب فى كل من نحب وهو المعبود فى كل مانعبد بلاشريك ولاندّ .. فأينما ولينا وجوهنا فليس ثمة إلا وجهه .. فإذا انخطف قلبك لرؤية جمال فما خطف قلبك إلا هو .. وإذا انخطف سمعك لكلمة فما خطفها إلا الحق الذى تجلى فيها وإذا ذُبْتَ لحضرة فلما استشعرت من وجود الله فيها .

فهو وحده الذى يجعل القيمة لأى قيمة .. ومن وجهه تفيض الكمالات

على كل ذى كمال .

وما الوجه إلا واحد غير أنه
إذا أنت عددت المرايا تعددا

يقول الصوفى لربه :

وأثنينا على أوصاف ليلى . .
ومعنى غير حسنك ماعنينا

ولذا ينظر الصوفى حوله دائما فى دهشة لأنه يرى وجه ربه فى كل شىء . فالجمال المجتمع فى الذات الإلٰهية يراه مفصّلا فى الأكوان . . والتعدد والتكثر حوله ماهو إلّا إشهار وإعلان وتفصيل لما أجمل من أسرار فى ذلك الواحد فما يرى إلّا الواحد ، وإنما تعددت المرايا فتعددت المشاهد وتعددت المناظر وتعددت الزوايا . . وهو بحكم البشرية يرتبط بالحدود والمعالم ويتوجه إلى الجهات ويعانق المحدود ولايستطيع أن يتعامل إلا مع لحظات متفرقة . . ولكن الروح الطليقة فى داخله . تتخطى هذا الستار المزركش ذا الرقع المتعددة الذى اسمه الدنيا ، وتتخطى حواجز اللحظات لتلامس الأبدية وتعانق اللامحدود فى شغف دائم ودهشة متجددة . . ومالحظة الحب المتوهجة إلا عناق ذلك الواحد

ولذا كان الصوفى دائما عاشقًا ولهانًا مهيما متيما نصف حاضر نصف غائب . يطالع البهاء الإلهى فى كل لفتة ويصغى مشبوب الفؤاد إلى كل همسة لأنه يرى الله فى عين كل ناظر ويسمعه على لسان كل متكلم

ثم إن الصمت عنده مكالمة . . والهدوء مسامرة . . والسكينة مؤانسة . . والوحدة معيّة . . والانفراد صحبة . . والخلوة نجوى . . وهو لهذا لايمل

ولايضجر ولايستوحش . وهو عاشق ، ولكن كل مايهوى من أسماء إنما هى رموز للواحد . وأثواب الفتنة والجمال التى تتألق بها الجميلات فى ناظريه إنما هى تجليات خلعها الواحد على هذه وتلك فمضت تختال بها

وإذا قلت زينباً أو ثريا أو سليمى فاحكموا
أنه رمز بديع حسن تحته ثوب رفيع معلم
وأنا الثوب على لابسه والذى يلبسه لايعلم

ولهذا يقول للّائمين فى الهوى :

وقالوا شربت الإثم كلا وإنما
شربت التى فى تركها عندى الإثم
هنيئا لأهل الدير كم سكروا بها
وما شربوا منها ولكنهم هموا
وعندى منها نشوة قبل نشأتى
معى أبدا تبقى وإن بلى العظم

ذلك هو المحبوب الواحد والوحيد . . الله جل جلاله .

ولادوام لحب إلا الحب له والحب فيه .

وماالدنيا كلها بعد ذلك وماشخوصها ومارجالها ومانساؤها إلا مجرد مناسبات تهيج الذكرى إلى ذلك المحبوب وتردنا إليه وترجعنا إلى ساحته وتشوقنا إلى أوصافه .

والدنيا هى أرض الغربة والاغتراب والبعد والحجاب والغفلة والأسباب والتيه والضباب . . ولاعبرة فيها إلا بلحظة الصحو والفواق والشعور بلوعة الفراق . . والحنين إلى اللقيا . . وإلى بلد المحبوب . . وإلى وطننا الأول عنده

الذى منه جئنا وإليه نعود . . ثم مايثمر هذا الحنين من تشمير للسواعد وجدّ فى العمل للتقرب والتحبب إلى هذا المحبوب الجليل لتكون ساعة اللقيا ساعة رضا لاساعة خزى .

فإذا لم تثمر حياتك بمتاعبها وآلامها إلا هذه الثمرة فحسبك بها كسبا . . وقد عشت وأدركت وفهمت ، وإذا لم تثمر هذه المعرفة فما عشت وماأدركت وماكانت حياتك إلا عبثا وهى وعدمها سواء وإن امتلكت ذهب الأرض وعمرت ألف عام . . فأنت والدابة سواء . . بل الدابة أفضل لأنها تعبد الله على طريقتها وتعرفه على سليقتها وتحبه على فطرتها .

فما بال سيد الكائنات الذى أعده الله ليعرف فلم يعرف ، وزوّده ليدرك فلم يدرك ، واصطفاه لحبه فتولى عنه ولم يعش إلا لحب الخسائس والتهالك على سقط المتاع . فإذا أضناك هوى أو أعماك طموح أو أضلتك فتنة فانظر تحت قدميك إلى التراب الذى يطؤه حذاؤك ، وسل نفسك كم من رؤوس امتلأت بالفتن والأطماع والأهواء ثم غيبها ذلك التراب . . ذلك التراب عينه الذى تحت حذائك . .

وإنك لتوشك أن تكون ترابا أنت الآخر يطؤه ناس آخرون . . وإنما هى برهة والتفاتة .. ثم ينتهى كل شىء .. فلاتضيع هذه البرهة الخاطفة فى خسائس الأمور . . واختر لنفسك المحبوب الذى يليق بكمالك . . المحبوب الذى لايضيع عنده معروف ولاتضيع مودة . . وذلك ربك وخالقك . .

ولئن ضيعت ربك فابك ماشاء لك البكاء . . فلقد ضيعت كل شىء .

ولايغرك علمك . . فقد أضل الله قوما على علم وأهلك أقواما كانوا مستبصرين . . وعثرة العالم أسوأ بما لايقاس من عثرة الجاهل .

فلئن كنت تطمع فى نجاة فتوسل إلى فضله وليس إلى علمك . ولذْ بجنابه ولاتعتز بجنابك ، واسجد لتدخل من الباب الضيق والزم العبودية لتكون أهلا لعطاء الربوبية .

وإذا راودتك نفسك الأمّارة وسوّل لك شيطانك بأنك على شىء فانظر مرة أخرى إلى التراب الذى يطؤه حذاؤك . فذلك التراب هو الملوك الذين غبروا قبلك وعروشهم وأمجادهم ومواكبهم وقد انطوى فيه التصفيق والهتاف وماتت الضجة وسكتت الأبواق ودفنت الرايات وعاد كل شىء ترابا .

وموعدك مع هذا التراب قريب .

حينما تكون « أحبّك » معناها أكرهك

لاتوجد كلمة فى القاموس تعددت معانيها وتنوعت وتناقضت بقدر كلمة أحبك .

وأكاد أقول إن هذه الكلمة لها من المعانى بقدر عدد الناس أى أربعة آلاف مليون معنى . . فالذى يقتل يقول قتلتها لأنى أحبها والذى ينتحر يقول انتحرت لأنى أحبها والمرتشى واللص والمختلس يقول فعلت ذلك لأنى أحب والغيور لدرجة الجنون يقول أنه يغار لأنه يحب والمتساهل لدرجة الانحلال يقدم زوجته لمن تشتهى من الرجال ويقول فعلت ذلك من فرط الحب . . والصوفى المتجرد لربه يقول أرى الله فى وجوه الأطفال وفى تفتح الورود وفى سقسقة العصافير ورفيف الفراش ويقول حبى للمخلوقات من حبى لخالقها ؛ ولهذا تجرد حبى من الحظوظ والأهواء والمنافع والأغراض والأوطار وصار حبًّا لله وفى الله . . وأهل الاعتدال اعترفوا بالعجز عن التجرد عن الحظوظ والأهواء والشهوات وقالوا حسبنا أننا أخضعنا شهواتنا لأحكام الشريعة

وأردنا الحب زواجًا وعمارًا للأرض ومودة ورحمة . . وأهل الأطماع أحبوا فى المرأة غناها وأهل الشهوات أحبوا فى المرأة جسدها . . وأهل الفن أحبوا فى المرأة جمالها .. وأهل الخير أحبوا المرأة معوانا لهم على الخير.. وأهل الشر أحبوا المرأة معوانا لهم على الشر.. وأهل القلق والهموم أحبوا المرأة هروبا وأفيونا . . وأهل الإجرام أحبوا المرأة جاسوسة ونشالة ولصّة . . وأهل التجارة أحبوا المرأة سمسارة . . ومديرة علاقات ومروجة سلع .

وكل صاحب ملة أحب المرأة على ملته .

وكل صاحب مشروع أحب المرأة مشروعه .

ولهذا تعددت معانى كلمة أحبك بعدد أنفاس الخلائق وبعدد أغراضهم وأهوائهم.. وكان معناها أحيانا أقتلك وكان معناها أحيانا أكرهك.. وكان معناها أحيانا استعبدك.. وكان معناها أحيانا أسلبك.. وكان معناها أحيانا أعطيك وكان معناها أحيانا أحب نفسى.. وكان معناها أحيانا كن لى وحدى . . وكان معناها أحيانا ليكن كلانا للناس . . وكان معناها أحيانا ليكن كلانا لله . . وكان معناها أحيانا . . ليكن حبنا مسيرة فكر أو مسيرة علم . . أو مشوار كفاح . . وكان معناها أحيانا . . ليكن حبنا أسرة وعائلة وأبناء وجيلا جديدا أحسن منا .

وتزوجت المطربة ملحّنها ، والممثلة مخرجها ، والنجمة منتجها .

وتزوج الرسام الموديل ، والمدير السكرتيرة .

وتزوج كورى ومدام كورى ليكون حبهما مشوار اكتشاف للراديوم .

وتزوج النبى محمد عليه الصلاة والسلام من خديجة ليكون زواجهما مشوار رسالة من أعظم الرسالات على الأرض .

واختلفت منازل الحب حسب منازل الناس .

وتفاوتت مراتب الحب حسب مراتب الناس.. فهو شهوانى بين الشهوانيين تجارى بين التجاريين نفعى بين النفعيين . . صوفى بين الصوفيين . . فنى بين الفنيين . . مجرم بين المجرمين . . وهو وضيع بين الوضعاء خسيس بين أهل الخسة . . ورفيع بين أهل الرفعة . . وسماوى بين أهل السماء وأرضى بين أهل الأرض .

والكل صادق فى كلمة أحبك ساعة يقولها . . أحيانا مجرد صدق لحظى . . للاستهلاك الوقتى حتى يأخذ المقابل الفورى من اللذة ثم يذهب لحال سبيله وقد نسى كل شىء .

وأحيانا عند أهل القلوب والمشاعر وأهل العمق يكون للصدق عمق وللعاطفة مدد من الزمان والدوام بقدر عمق نفوسهم وسلامة فطرهم . وأدوم الحب ما كان لله وفى الله .

وأقصر الحب ما كان لهدف اللحظة .

وبين هذين كل درجات القصر والطول والزوال والدوام وكل ألوان الطيف . ولايلومن محب فى فشله إلا نفسه فإن نفسه هى القماش الذى فصّل منه حبه . وفى النهاية الحب أكبر حقيقة بلا جدال .

وهو أيضا أكبر وهم بلاجدال .

فانظر إلى نفسك أيها القارئ أين تقف بين هؤلاء . . ومن أى صنف تكون ويكون حبك . . وأين منزلتك بين هذه المنازل . . وأين مرتبتك بين هذه المراتب .

واقرأ المقال من جديد لتعرف من أنت . . وأين أنت .

تعدد الزوجات العصرى

لأن المرأة هى الرحم وهى أصل الشجرة التى تحفظ الأنساب فقد كرمها الله بالوحدانية فى الحب والزواج فالمرأة السويّة لاتختار للحب والزواج إلّا واحداً وهى إن كانت من أهل الفطرة السليمة فهى تكره التعدّد وتكره أن يطأها أكثر من رجل . .

أما الرجل فلأنه واضع البذرة وفى سنة الله العمار والإثمار والإخصاب فقد خلق الله فيه ميلاً إلى التعدد ليستطيع أن يبذر فى أكثر من حقل ليعطى أكثر من محصول .

وقد حدّد الله فى شريعته هذا التعدد بأربع زوجات لمن يستطيع العدل . . ثم شفع الله هذه الشريعة بملحوظة مفيدة وهى أن الرجل لن يستطيع أن يحقق هذا العدل وإن حرص عليه . . وتلك إشارة إلى رجل آخر الزمان أو رجل اليوم الضعيف الهمة الخائر العزم الذى فقد القدرة على العدل فى بيته كما فقد القدرة على العدل فى مجتمعه . . وإشارة إلى جبروت المرأة فى

آخر الزمان وكيف سترغم رجلها الضعيف على الوحدانية فى الحب والزواج رغم غريزته التعددية فيصبح حاله حال حريم العصر البائد وأضعف.

لقد انتهى زمان الرجال الكبار أولى العزم الذين كانوا يعددون الزوجات ويعطون لبيوتهم ومجتمعاتهم ولحضارات عصورهم الكثير.

وأصبح رجل اليوم يحمد الله على الزوجة الواحدة إن وجدها ويقبّل يده ظهرا لبطن.. وأصبحت هى التى تتبطّر عليه وتعيره بنقائصه.

ولكن نزوة التعدد فى هذا الرجل الخائر الضعيف لم تخمد فهى غريزة لاسبيل إلى دفعها.. وهو يكتفى اليوم بإشباعها إشباعا رمزيا فيتزوج زوجة واحدة ومعها ثلاثة تليفونات.. أو تليفونان وفتاة بالمراسلة.. أو زوجة وسكرتيرة وذلك أضعف الإيمان.

ولكن المرأة الجبارة له بالمرصاد فهى تراقب التليفونات وتفتح الخطابات وتسجل المكالمات.. وهى عند اللزوم تمارس سلطاتها المطلقة فتلقى بهدومه من الشباك وتطرده فى العراء كذكر النحل وتلقى على سمعه من لواذع الكلم ماينفطر له فؤاده المسكين.. بل إن صاحبات المال والجاه أصبحت الواحدة منهن تعطى نفسها حقا مماثلا، فيكون لها مدلّك لعواطفها فى المساء ومنشّط لغرائزها فى الصباح.. وزميل عمل.. ومستشار مشاكل.. وكاتم سر.. وشاعر معجب.. وصحفى مرافق لقتل الوقت.

وإن لم تعجب الزوج هذه القائمة الحافلة فالباب مفتوح على مصراعيه يخرج منه الجمل بما حمل.. وهؤلاء هن صاحبات الصالونات والمحافل والنجمات الثريّات من أهل الدخل المرتفع.. ولهن العذر فى هذا الجبروت فالواحدة منهن أصبحت تحمل وتلد وترضع وتعمل وتنفق على البيت وعلى

الزوج فماذا أبقى الرجل لنفسه من دولة سوى التلقيح . . وهى وظيفة تافهة يمكن أن يحل فيها أى ذكر مكان أى ذكر . . وهى فى جملتها دقائق . . ولايمكن تقويم حياة بهذه الدقائق .

ذلك هو حال رجل اليوم الضعيف الذى انتهت دولته ولم يبق على عرش هذه الدولة المنقرضة إلا أفراد من أصحاب الملايين هم الوارثون الباقون لمبدأ تعدد الزوجات . . ومع ذلك لايستطيع الواحد منهم أن يجمع زوجاته فى بيت أو شارع أو بلد . . وإنما يتخذ الواحد منهم فى كل قارة زوجة ليتفادى المشاكل ثم لايسلم فى النهاية من امرأة تقرعه بمقرعته ، فيقع أوناسيس فى جاكلين كيندى ، ويقع على خان فى ريتا هايوارث . . وتسوق جاكلين بطلها النحس حتى الثمالة ، فيفقد ابنه وحياته ويترك لها الثروة والدنيا لتمارس هى التعدد على طريقتها .

والمضربون عن الزواج معذورون . . وهؤلاء اعترفوا بضعفهم وأعلنوا خوفهم وجاهروا بجبنهم واتخذوا من إضرابهم عقاباً يردون به على المرأة التى تسلطت وحكمت وطغت وظلمت وتجبرت . . وكأنما يقولون لها من طرف اللسان . . حسنا فلتعيشى إذن وحدك ولتحاولى الاستغناء عن الرجل إن استطعت . . وهنيئاً لك العرش الذى اغتصبت والتاج الذى لبست .

وانعكست قوة المرأة الجديدة على الحياة الزوجية فأصبحت الحياة اليومية البيتية صراعاً على السلطة وتنازعاً على الحكم واختفت المحبة والتعاطف والتعاون والتساند .

وأصبح الطلاق يطل برأسه بعد شهور أو سنوات من الزواج ليهدم الأعشاش الحرية الواهية . . وغدا منظر المرأة الوحيدة أمام كأس البيرة عادياً

فى أوروبا وأمريكا .

وغدت الشيخوخة المهجورة البائسة منظرًا مألوفا فى الملاجئ حيث يموت فى الوحدة الأجداد والجدات العجائز دون أن يسأل عنهم أحد .

وذلك هو التأخر الإنسانى الذى حدث فى موازاة التقدم العلمى والتكنولوجى فى المجتمعات الجديدة .

وقد سبقتنا أوروبا وأمريكا إلى هذا التفكك الأسرى . . ونحن اليوم نقلدهم للأسف دون أن نلحق بهم فى السبق الآخر الذى أحرزوه وهو التقدم العلمى والتكنولوجى .

نقلدهم فى مساخر الويك إند فقط وننسى أن هذه المتع التى نحاول أن نقلدها جاءت بعد أسبوع شاق من البناء والتعمير وشق الصخر والكدح والعمل . . بينما نحن نتحرك من كسل إلى كسل ثم نطلب فى آخر الأسبوع يوما آخر للكسل ، والركب يسير .

والمرأة سيدة الوقت ، وفى طليعة الركب نرى مسز تاتشر على رأس الوزارة فى انجلترا وإنديرا غاندى على رأس الحكم فى الهند وسيمون فيل على رأس البرلمان الأوروبى . . وماريا دى لورديس على رأس حكومة البرتغال والأم تيريزا تفوز بجائزة نوبل للسلام . . والأوائل فى نتائج الابتدائية والثانوية والجامعات من الطالبات . . حتى حلبات المصارعة الحرة والكاراتيه اقتحمتها المرأة . . والرجل الخارق فى التليفزيون جلست إلى جواره امرأة خارقة . . وفى الفضاء لحقت فالنتينا بجاجارين وجميع قنوات الإعلام عندنا على رأسها قيادات نسائية .

نحن ولاشك على مشارف عصر جديد ، وليست لدى أحد القدرة على

التنبؤ بسلبيات أو إيجابيات هذا العصر ولاإلى أى جانب سوف يميل مؤشر الأحداث . . ولاأى دفعة سوف تعطيها الأيدى الناعمة لمسار التاريخ إلى أمام أم إلى الوراء .

لقد كادت إنديرا غاندى فى فترة حكمها السابق أن تصبح دكتاتورة . . وكادت أن تفرض على الهند حكما مستبدا مطلقا . . وفى ذلك اتهمها الخصوم وطلبوا تقديمها للمحاكمة .

كما ذهبت مسز تاتشر بالحكم فى انجلترا إلى أقصى التشدد اليمينى وإلى أقصى المغالاة فى الحفاظ على الرأسمالية الإنجليزية .

ويخطئ من يتصور أن حكم المرأة ناعم لين مثل حضنها . . فالواقع هو العكس . . فالمرأة عنيدة مثابرة فى صوابها وفى خطئها . . وطاقتها على الإصرار فى الحالين أكبر من طاقة الرجال وهى لاتتنازل عما فى رأسها بسهولة .

وقد اختار الله كل أنبيائه رجالا .

وهو العليم بمن خلق .

ولو رأى فى النساء صلاحية للقيادة لاختار منهن أنبياء .

ولكن الزمن تغير . . وتدهورت نوعية الرجال .

وتدهورت النوعية الإنسانية بجملتها فأصبح خيارنا نساء فولّاهن الله الحكم علينا .

ولانملك الآن نحن الرجال الضعفاء إلّا النظر حولنا فى إشفاق وإلّا الدعاء بالتوفيق للعصر الحديدى الجديد . . عصر المرأة القوية ربة البيت والمصنع والمجتمع .

ونسأل الله الستر واللطف . . .

النار كامنة فى الحجر . .

أخطر عدو للإنسان عاداته لأنها مع الوقت والتكرار والانتظام تضرب بجذورها تحت الجلد، ثم تجرى فى الإنسان مجرى الدم، وتدخل فى المزاج والشهية والمناخ النفسى . . فإذا كانت عادات خاطئة فإنها تتأصل فى السلوك ويصبح لها حكم . . مثل التدخين والشراب وتعاطى المسكنات والمنبهات والمخدرات وتعاطى الحب والجنس .

مثل هذه العادات تصبح مع الزمن حكومة مستبدة لها سوط إرهابى على صاحبها .

ومعتاد الصنف — أى صنف من هذه الأصناف — سيجارة أو كأس أو مخدر أو امرأة . . هو أبدا فى احتياج دائم . . إذا لم يجد الصنف فقد عقله بحثا عنه ، وإذا وجده وشبع منه ، ضجر وزهد واشتاق إلى التلوين والتنويع والتصنيف واندفع فى بحث مجنون عن الجديد من هذه الألوان ليعبّ منه عباً .

فهو دائمًا فى قلق... وهو دائمًا على جوع ، أو توتر، أو ملل... وهو دائماً فى حالة احتياج . . . أما الذين ابتعدوا بأنفسهم عن هذه العادات ، ونأوا برغباتهم عن هذه المخالفات ، فهم دائما الأسعد حالا . . وهم أهل النفوس المطمئنة المتوازنة المستريحة ، وهم الأقدر دائمًا على العطاء والإنتاج والعمل .

ولهذا . . . فإن أول رياضة خلقية ينصح بها شيوخنا من يريد التطهر من الخطائين ، هى خرق العوائد والخروج بالنفس من مألوفاتها وفطامها من محبوباتها . كسر سور المألوف هو الخطوة الأولى .

وهى أصعب الخطى على النفس وأشقها على سالك الطريق . . لأن الإنسان عبد لما تعود وعدو لما جهل . . وعاداته تنضبط عليها هرموناته وتتولف عليها عجلة حياته . . فالخروج من هذه العادات كالخروج من الجلد واللحم شاق مؤلم مرير يدمى النفس ويبكيها .

والنفس كالطفل إن تهمله شبّ على
حبّ الرضاع وإن تفطمه ينفطم

وأول نصيحة للشيخ . . هى . . الترك . . البعد . . والترك . . والهجر . . وغضّ البصر . . ومهاجمة الخواطر قبل أن تهجم عليك ، وطرحها وراءك .

إن أقوى الشهوات يمكن أن تموت وتذبل بالترك .

إن النار كامنة فى الحجر . . ولكنها لاتخرج من كمونها إلا بقدح الحجر بالحجر . . قدح الذكورة بالأنوثة هو الذى يولد الشرر .

ابتعد واهجر واترك وغضّ بصرك .

سافر إلى أقصى الأرض .

اضرب خيمتك فى فلاة . . فإذا اشتقت ، عضّ على بنانك ، واصرخ وابْك وغنّ وانشد الشعر ، وخرّ على وجهك ساجداً ، واطلب من ربك المدد واشتغل بالصلاة ، واعمل طول يومك فى عمل منتج مفيد .

والغاية تستحق أن تتعب من أجلها وتدمى القدم والبنان .

فليس أشرف من الكمال الخلقى ، وقهر الهوى ورياضة النفس على الحكمة .

فهل بدأت معركتك . . . ؟؟

إن لم تكن قد بدأت . . فشمّر ساعديك ، وأبدأ من فورك . . قبل أن يعاجلك الأجل ، فتموت حيوانا ، وتحشر مع الحيوان .

أخرق عوائدك . . اطفئ سيجارتك وحطم كأسك ، وألق بزجاجة المنوم من النافذة ، وغالب ضعفك ، واقمع شهوتك وخاصم شيطانك ، وخالف نفسك وقاوم محبوباتك وتحمل مكروهاتك ، واهجر أفيونتك ، وخاصم معشوقتك .

يقول الصوفى الكامل محمد بن عبد الجبار بن الحسن النفرى فى إلهاماته الربانية :

ياعبد . . جعت فأكلت . . ماأنت منّى . . ولاأنا منك . . عطشت فشربت . . ماأنت منى ، ولاأنا منك .

ومقصود الشيخ أن المسارعة فى تلبية الطبع مهلكة . . وأن مجاهدة الطبع تبدأ من كل شيء . . من أ . ب الأكل والشرب . . فإذا طلبت المعدة

الأكل فالزم الجوع ، وإذا طلبت الشراب فالزم الظمأ . . فذلك هو التمرين الأول لفطام النفس .

ونصيحة الشيخ نصيحة عظيمة فى هذا العصر العجيب . . عصر الأكل . . عصر الصياح والصراخ من أجل الياميش والمكسرات . . العصر الذى يبلغ فيه استهلاك اللحم ذروته فى شهر رمضان . . شهر الصيام .

هل أدركتم فى أى عصر نعيش ؟ .

وفى أى عصر كان يعيش صاحبنا الصوفى الكامل ؟

ومقدار المسافة بيننا وبينه .

وإلى أى مدى تفاوتت المراتب .

ذلك رجل كان يجاهد نفسه لفطامها من الماء والخبز .

ونحن نجاهد أنفسنا لنفطمها من الجاتوه ، وكأس البراندى والسيجار والصدور العارية ، والظهور العارية ، واللذات المختلسة آخر الأسبوع خلف الأبواب . تلك العادات التى بدأت تتسلل إلينا من التليفزيون والسينما لتتخلل نسيج الحياة كله وتصنع منها حياة رخوة استمتاعية استهلاكية تأخذ ولاتعطى . . حياة حسية دودية عقيمة . . حياة سوسها التعود .

فحذار . . .

وألف مرة حذار . . من التعود . . .

حذار من قدح النار التى فى الحجر . . .

هل هو عالم مجنون ؟

الحب . . والكورة . . والتليفزيون . . والكاسيت . . وحبوب منع الحمل .

ذلك هو عالم اليوم . .

زمان كان المحب العاشق يسعى على استحياء.. نظرة فابتسامة فسلام فكلام فوعد فلقاء فقبلة فعناق فخطبة فزواج . . أما اليوم فى أوروبا فتبدأ العلاقة من آخرها بحبوب منع الحمل . . ثم يسأل الواحد الآخر عن اسمه وتبدأ الحكاية من نهايتها . . على طريقة السينما . . فلاش باك .

والزواج المودرن الآن هو زواج كارى جرانت (٨٠ سنة) من بربارة (٣٠ سنة) . . . زواج أفلاطونى بهدف الرفقة الصالحة والدردشة قبل النوم .

والمخدرات لم تعد تجدها بين أيدى رجال فى أواخر العمر ولكن بين أيدى أطفال المدارس .

عصر السرعة . . ! ! ؟ .

يريد الصبيان فى السادسة عشرة أن يكونوا قد فعلوا كل شىء ثم فرغوا من كل شىء .. ثم ترى الواحد منهم يحزم متاعه فى سن السابعة عشرة ليقوم برحلة سياحية حول العالم .

ومكان سياح الأمس العواجيز نجد الآن أولادا وبنات فى عمر الورد يحمل كل واحد مخلة هدومه على ظهره ويفترش الرصيف وكأنما الأرض بعرضها غرفة نومه الخاصة .

فإذا بلغ العشرين فإن أحلام المجد والشهرة تراها أيضا من نفس الطابع السريع فهو يفكر فى أن يحتل الصفحات الأولى بقتل الرئيس الأمريكى أو اغتيال البابا .. فإذا سألته لم أطلق هذه الرصاصات . . قال فى هدوء . . لأن العالم يسير بطريقة لاتعجبه . . أو قال وهو يبتسم . . من أجل عيون حبيبتى . . فقد وعدتها أن أقوم بعمل خارق .

والطبع هو الذى يحكم الشاب ويوجه سلوكيته وليس المذهب .

إنما يأتى اختيار المذهب نتيجة الطبع . . فالطبع الدموى الرافض الحاقد يختار المذهب الانقلابى ليتذرع به إلى هدفه وليعطى جريمته شكلا فلسفيا مقبولا أمام الآخرين فهو ماركسى أو يسارى أو تقدمى يكافح من أجل مبدأ .

ولكن الحقيقة أنه لامبدأ له سوى الهدم وهو كذاب وخريطة العالم المذهبية تثبت كلامى .. فهاهو الشيوعى يقتل الشيوعى فى كمبوديا . . والماركسى يقتل الماركسى فى فيتنام والصين . . والمسلم يقتل المسلم فى إيران . . والمسيحى يقتل المسيحى فى أيرلندا . . والبعثى يقتل البعثى فى

سوريا والعراق . . والقومى العربى يقتل القومى العربى فى كل مكان .

الأفعال تكذب الدعاوى . . فيم يختلفون . . ؟ ! !

إنهم يرفعون نفس الرايات ومع ذلك يقتل بعضهم بعضا . .

ماذا يريدون بالضبط . .

إنها طباع دموية ترتدى أزياء مذهبية كاذبة .

والحقيقة العارية أنه لامبدأ هناك سوى شهوة القتل .

ولهذا ماتكاد عصابة من هذه العصابات تنجح فى قلب نظام الحكم حتى تبدأ فى تصفية بعضها البعض وفى قتل قياداتها فى شهوة تصفوية محمومة حتى لايبقى على القمة إلا سفاح هو أكثرهم دهاء وشراسة .

(وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها)

١٢٣ — الأنعام

هم إذن أكابر مجرمين لاأكثر.

وكلهم فى شقاق ليس بسبب مبادئ أو اختلاف رأى بل هو خلاف بين مجرم وبين مجرم آخر أكثر إجراما . . نزاع سلطة . . من يكون أسبق إلى الغدر . . صراع على موقع الجبروت والعزة .. فالكل كافر بكل شىء فيما عدا نفسه وعزته وسطوته .

(بل الذين كفروا فى عزة وشقاق) ٢ — ص

إنها خصائص عالم مادى وثنى لايؤمن إلا باللحظة العاجلة وبما ينهب ويغنم .

هل فقد العالم عقله . . ؟

لا . . بل هو قد بلغ الذروة فى عقله . . لقد مشى على القمر وأنزل سفنا

على المريخ . . وزرع الأجنة فى قوارير ونقل قلوب الموتى إلى أجسام الأحياء . . وقضى على أمراض الجدرى وشلل الأطفال والتيفوس وبنى ناطحات السحاب وخضر الصحارى وغزا الفضاء .

إذن كيف ينفق ألوف الملايين كل يوم ليصنع القنابل وقذائف الدمار وغازات الموت . ؟ .

كيف يشكو أزمة الطاقة وأزمة الغذاء وتلوث البيئة ثم ينفق نقوده ليبعثر الطاقة ويبدد الغذاء ويلوث البيئة ويصنع العذاب والجوع والعرى والموت لنفسه وللناس ؟

هل هو مجنون . . ؟ ! !

لاأظن لأنه يصطنع الحجج والمنطق والحيثيات لكل مايفعل . . وقبل أن يقتل يصنع نظرية للقتل . . وقبل أن يخرب ويدمر يسوق المعاذير والمبررات والذرائع .

حتى اللامعقول نراه يكسوه بسبب معقول وثوب معقول .

وهو دائما المجرم والضحية فى نفس الوقت .

وهو الصياد والفريسة والجانى والمجنى عليه .

هل هو لغز . . ؟ .

إن الله يساعدنا على فهم هذا اللغز فيقول لنا إنه خلق النفس الإنسانية قابلة لجميع المنازل والأحوال علوًّا وسفلا . . فهى يمكن أن تتدنى إلى المكر الإبليسى ويمكن أن ترتفع إلى الصفاء الملائكى .

وهى دائما محل التلوين والتذبذب .

لا ثبات إلا لنفوس الأنبياء والصديقين .

وهؤلاء الأنبياء قد رسموا لنا مساراً .

وهم ومن مشى على قدمهم فى هذا المسار هم الفرقة الناجية . . والباقون حطب النار . . بل إن الباقين فى النار من الآن . . وهم الكثرة والأغلبية الغالبة .

وهم من الآن فى سعار الخلافات وفى أتون الحروب .

إنهم فى نار الشقاق والعراك والصراع من الآن . . إنهم فى نار نفوسهم بالفعل يؤججون الأحقاد ويسعرون الفتن .

وهم عميان الدنيا ، وهم غداً عميان الآخرة .

(ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا) .
٧٢ — الإسراء

إن مايجرى فى الدنيا الآن هو امتحان نتيجته معانة ومشهرة بالرموز والإشارات من اليوم . . وأهل النار غداً هم أهلها اليوم .

فهل بدأت تفهم . . ؟

انظر فى نفسك تعرف الفئة التى ستؤول إليها .

وبقدر السلام الذى فى نفسك ستكون من الفرقة الناجية . . وبقدر التوتر والغل والحقد وشهوة الهدم تكون من الفرقة الهالكة . . ولاتغرك البطاقات والرايات المرفوعة والتصريحات والمتافات . . فكم من مسلم فى البطاقة وهو أشد كفراً من أبى جهل .

إنما النيات والأفعال هى الرجال .

والبواطن التى نجاهد فى إخفائها هى حقائقنا وليس مانلبس من ثياب وماندلى من تصريحات .

انظر فى باطنك . . وتفكر . . وتأمل . . وتعرّف على ماتخفيه . . تعلم أين مكانك فى الدنيا . . وأين مكانك فى الآخرة .

الرايات الكاذبة

عالم اليوم هو عالم الأهواء والمصالح والنزاعات الفردية والصراعات الطائفية . . برغم أن اللافتات المرفوعة تقول شيئا آخر وتدّعى أننا فى عالم الأيديولوجيات والمذاهب والمبادئ والصراعات العقائدية .

وهى لافتات كاذبة يستّر بها أصحاب المخالب مخالبهم ويخفى بها الطامعون أطماعهم .

والدليل على كلامى أن معظم حروب اليوم هى حروب بين أصحاب المبدأ الواحد حرب الصين وفيتنام . . حرب فيتنام وكمبوديا . . نزاعات روسيا والصين . . فهم جميعا يرفعون راية واحدة هى الشيوعية ويدينون بحكم واحد هو حكم طبقة البروليتاريا ويؤمنون بأيديولوجية واحدة تقول إن صانع الحوادث ومخطط التاريخ هو دائماً صراع الطبقات . . ومع ذلك يقتل بعضهم بعضًا فى حروب لاتنتّهى وهم طلائع طبقة واحدة .

إن أفعالهم تكذب أقوالهم ومسلكهم يكذب مبدأهم فهاهو ذا التاريخ يتحرك ويصنع بصراعات أخرى تماماً غير الصراع الطبقى . . صراعات عنصرية وعرقية ونفسية وشخصية .

وعلى الجانب الآخر نجد سوريا والعراق صاحبى الحزب الواحد والمبدأ الواحد الاشتراكى البعثى يتقاتلان . . ثم نجد العراق الدولة الإسلامية تقاتل إيران الدولة الإسلامية .

وفى أقصى الشمال فى أيرلندا نجد المسيحى يقتل المسيحى .

الأم تأكل أولادها فى كل مكان . . فكيف ترفع راية الأمومة .

إن اللافتات كاذبة .

لسنا فى عالم أيديولوجيات ومبادئ .

واليسار كاذب واليمين كاذب .

واليساريون أفاقون كاذبون واليمينيون أفاقون كاذبون .

لاأحد يؤمن بما يقول ولاأحد يعمل بما يؤمن .

وإنما الحقيقة أننا نعيش فى عالم شبه وثنى تحركه الأهواء والأطماع والمصالح . . الدول لها شكل الدول فى الظاهر . . ولكنها تتصرف كعصابات فى الحقيقة . . والزعماء بعضهم قطاع طرق يمارسون قطع الطريق علانية ويتباهون بالمشانق والمذابح ومطاردة الخصوم إلى أقصى الأرض .

لم تعد الخريطة خريطة مبادئ تتصارع ولادول تتطاحن بناء على مبدأ مفهوم . . وإنما بدأ التحلّل والتفكك يصيب الجسم الاجتماعى . . وانحلت الدول إلى عصابات وأفراد . . وفى غياب المبادئ كاد كل فرد يصبح

جمهورية مستقلة . . وأصبح كل واحد يحارب كل واحد فى منازعات يومية مصلحية لاتهدأ .

وتداخلت العوامل الفردية لتصنع نسيجًا معقّدا للحوادث تستحيل معه الرؤية الواضحة ويستحيل التنبؤ .

ولم يعد من الممكن تصنيف الحوادث بالطريقة الساذجة القديمة . . إن الحرب هنا أو القتال هناك هو صراع بين اليمين واليسار .

لم تعد تلك السذاجة القديمة تصلح لفهم الحوادث .

السوفييت يعطون السلاح للعراق ويعطون السلاح لإيران فأين اليمين وأين اليسار . . ؟ روسيا تحتل أفغانستان بالدبابات فأين الكلام عن الإمبريالية ؟

المسيحى يقتل المسيحى فى أيرلندا فأين المبادئ ؟

المسلم يقتل المسلم فى العراق وإيران فأين الإسلام ؟

هل هذا هو « الهرج » الذى قال النبى عليه الصلاة والسلام أنه من علامات اقتراب الساعة . . والهرج هو القتل الفوضوى .

إن الإنسان إذا أسلم سفينة حياته للأهواء .. مزقت الأهواء شراعه وحطمت مجدافه . .

وأصبحت حياته ألعوبة فى يد الموج . . موج الهوى المتلاطم . . كل يوم على حال . . وكل لحظة بمزاج . . وانتكس قانونه فأصبح عقله فى خدمة جنونه ، وحكمته فى خدمة شهوته ، وثروته وسيلته إلى دماره .

وهذا حال عالم اليوم . . عالم الأهواء .

دول نامية مثل العراق وإيران لها ثروات كبيرة من عوائد البترول

تستخدم هذه الثروات فى تدمير نفسها .

ودول متقدّمة فى الغرب عندها علم وتكنولوجيا وإلكترونيات وطاقة ذرية تستخدم هذا التقدم فى بناء ترسانات من السلاح ومخزونا مدمرا من الصواريخ والقنابل ستكون أداة دمارها .

وهذا هو إنسان الهوى فى العالم المادى الوثنى الذى نعيشه .

فأين هو من إنسان المبدأ الذى قرأنا تاريخه أيام الصحابة وفجر الإسلام . . إن بينهما من المسافات أكثر مما بين فلك وفلك .

ولايكفى أن يكون الواحد اسمه فى البطاقة أحمد وأن يضع فى العربة مصحفًا وأن يعلّق فى عنقه سلسلة فيها لا إله إلّا الله .

فكل هذه اللافتات سوف تشهد ضدّه يوم لايجدى إنسانًا إلّا عمله .

فهو فى الوقت الذى ينحرف فيه غاية الانحراف يجدّد العهد كل يوم ويوقع المواثيق ويضع فى عنقه الصكوك والأختام ، ويصيح من فوق أعلى المآذن ومن فوق أبراج الكنائس أنه لا إله إلّا الله .

ومطابعه التى تطبع مطبوعات الهوى والانحراف هى نفسها التى تطبع المصاحف والأناجيل . . وبمرور الزمن يزداد الانفصام فى هذا الإنسان العجيب المزدوج .

ترى هل نسير نحو يوم يصبح فيه العالم شيئا مثل لبنان . . غابة انطلقت وحوشها سائبة . . لا أمن فيها ولا أمان . . ولانظام ولاجيش ولاقانون . . لأن كل فرد جعل من نفسه جيشا ونظاما . . وأقام من نفسه قانونا .

ترى هل يجئ ذلك اليوم الذى قال عنه النبى عليه الصلاة والسلام . إذا جاء ذلك اليوم أغلق عليك بابك والزم طريقك .

هذا الجهاز سوف يغير العالم

لندن . . الجمعة ٥ سبتمبر سنة ١٩٨٠

اكتشفت آخر الليل أنى كنت جالساً طول اليوم أمام التليفزيون لم أفعل شيئا سوى الحملقة فى الشاشة الصغيرة التى ظلت تستدرجنى من برنامج إلى برنامج . . من فيلم إلى رقصة إلى أغنية إلى ندوة إلى خبر إلى استعراض إلى سيمفونى إلى ماتش كورة إلى مسرحية إلى قصيدة حتى منتصف الليل وأنا فى سريرى معتقل باختيارى . . بل ربما أكثر قليلا من مجرد معتقل ، فقد كنت طول الوقت معتقل الحركة أيضا معتقل الحواس سجين الانتباه فى شاشة عرضها ٢٢ بوصة لاأستطيع منها فكاكا .

وحينما كان السلام الملكى البريطانى يعزف لحن الختام كنت أمسح عينى وأتساءل عن تأثير هذا الجهاز السحرى العجيب الذى قلب جميع الموازين . . فالتليفزيون الجيد أصبح تأثيره الآن عكس تأثير الكتاب الجيد . . فالكتاب الجيد يحرر الإنسان الذى يقرأه أما التليفزيون الجيد فيعتقل الإنسان الذى يشاهده . . يعتقل جوارحه ويعتقل خياله ويقيد يديه ورجليه .

وساءلت نفسى . . ترى هل هذه هى المعتقلات الاختيارية الجديدة التى توضع فيها الشعوب العصرية حيث يغسل مخها بالأغانى والرقصات وأفلام العنف ومشاهد الجنس ثم تعبأ بالتوجيهات المطلوبة والدعايات المرغوبة .

وأى نوعية من الأجيال الجديدة يمكن أن تخرجها هذه الجامعات التليفزيونية الأمريكية . . لاأظن أنها يمكن أن تخرج النوعية القديمة من الشباب الذى حارب وأقام إمبراطورية . . ولاأظن أن الأجيال الجديدة فى أوروبا يمكن أن تحارب بحماس من أجل أية قضية . . فالشباب رخو مرفّه وهو بعد عمل مرهق طول الأسبوع لايفكر إلا فى صحبه ممتعة وحضن دافئ وكأس مترعة يغرق فيها عطلة نهاية الأسبوع .

والشباب الجديد فى أوروبا يعمل بنشاط ليكسب بوفرة وينفق بكثرة .

وهذه هى العقلية المادية التى تسود العصر . . لاتدع اللحظة تفوتك . . خذ منها أقصى ماتعطيه من كسب ومتعة ولذة . . عش أيامك قبل أن تمضى ولاتعود .

تلك هى فلسفة اليوم التى يعيش لها وبها الشباب . . بعد المصنع السترِيو وعلب الليل والمراقص ومباذل الويك إند . . فلسفة ينشرها ويعززها ويروج لها جهاز خطير اسمه التليفزيون العصرى .

جهاز خطير سوف يغيّر العالم كله . . وسوف يجعل العهر على الشيوع ، والانحلال أمرًا عاديًا ، واتباع الهوى بداهة ، وطلب اللذة مشروعا مثل بطاقة سكر التموين .

وفى الجانب الشيوعى والاشتراكى من العالم حيث النظم شمولية

والحزب الحاكم واحد ومنفرد بالسلطة نجد الحصار الإعلامى فى التليفزيون بالغ الذروة فى غسل الأمخاخ وتفريغ العقول وإعادة ملئها على هوى الحاكم وعلى قوالب النظام وتكاد البرامج كلها تمشى على جسور مرسومة لاتفلت منها كلمة .

بينما فى الجانب الديموقراطى الحر من العالم حيث تتعدد الأحزاب وتتعدّد الآراء وتتعدد الصحف تظهر شواهد كثيرة لهذه الحرية فى البرامج التليفزيونية ويجد المشاهد أمامه أكثر من رأى يستمع إليه ويختار منه . . وهو بذلك يفلت من السجن السياسى المضروب على العقول فى النصف الشيوعى من العالم ، ولكنه يقع فى سجن شهواته بما تثير فيه برامج العرى والجنس من رغبات مستعرة تعطل عقله .

ونحن فى الحالين أمام جهاز خطير له قدرة تشكيلية على العقول والأذهان . . وهو مع التكرار والاستمرار سوف يخلق نوعا من التعوّد على ألوان من البرامج الاستمتاعية يستحيل بعد ذلك تغييرها أو إيقافها .

سوف نصبح أمام جمهور مثل طفل تعوّد على مصاصة أو لبانة إذا حاولت انتزاعها من فمه ارتفع عويله وصراخه .

ولو وقف مصلح اجتماعى يطالب بإيقاف هذه البرامج اللاهية وتحويل البرامج التليفزيونية إلى نوع من الجامعة الشعبية وتحويل الإعلام الاستمتاعى إلى إعلام تربوى . . مثل هذا المصلح سوف يواجه بالطوب ومظاهرات الاحتجاج من الجمهور نفسه . . جمهور الأغانى والقبلات والمسلسلات والرعب والدم والجنس والكورة . .

فمثل هذه البرامج أصبحت الآن أفيونة ومصاصة ولبانة يمضغها المشاهد

فى تلذذ ويستمتع بسمومها وينام على تخديرها ولم يعد من الممكن انتزاعها منه إلا باستخدام القوّة القهرية . . والقوة القهرية سوف تلقى بنا إلى سجن أسوأ هو الحصار الإعلامى الذى يشكو منه النصف الشيوعى من العالم . . فنحن بين نارين .

والمأزق يسير نحو حارة سدّ .

وهذا الجهاز السحرى بسبيله إلى إحداث تحولات فى الوعى الإنسانى ستكون للأسف بالسلب وليس بالإيجاب .

ولن تكون أجيال التليفزيون القادمة أحسن بل أسوأ من أجيال ماقبل التليفزيون .

ويضاعف من الأثر النفسى للتليفزيون . . أننا نتلقى برامجه ونحن فى الفراش فى حالة استرخاء كامل أو فى كراسى وثيرة بالبيجاما وحولنا الأطفال يشربون بعيونهم كل حركة وكل همسة . . وهذه الحالة تجعل النفوس مفتوحة قابلة للتطبع بكل فكرة ترد عليها .

وقد بدأنا نشاهد الآن أطفالا يرتكبون عمليات قتل وسطو وطلبة بالجامعة يؤلفون عصابات . . وبعرض العالم كله تنتشر عمليات العنف والخطف واحتجاز الرهائن وتفجير القنابل . . وفى المدن الكبرى فى أوروبا لاتكاد تجد فتاة بعد السابعة عشرة محتفظة بيكارتها .

وفى أمريكا يقول علماء النفس إن هذه نتائج طبيعية فالشاب الأمريكى لايبلغ الثامنة عشرة إلا ويكون قد شاهد أكثر من عشرة آلاف جريمة قتل واغتصاب وزنا وسرقة تمارس أمامه على شاشات التليفزيون . . فأىّ غرابة

بعد هذا فى أن يفقد الجسم العارى حرمته وأن يفقد القانون هيبته وأن تفقد الأعراف الخلقية سلطانها .

إن العين تألف الانحلال والفساد فيصبح من كثرة عرضه أمامها شيئا مألوفًا لاغرابة فيه . . وتصبح القبلات والأحضان والمضاجعة أشياء عادية مثل المصافحة .

إن ضغطة بطرف البنان على زرار أصبحت كفيلة باستحضار كل منتجات هذه المدنية العجيبة بعهرها وخلاعتها وفنها وفكرها وعلمها وصلاحها وفسادها . . فى لحظة .

وصحيح أن التليفزيون يعرض بالفعل فنونا رفيعة وأفكارا عالية وهو يقدم الدين والقيم والعظات والعبر إلى جانب الجريمة والجنس والانحلال . . لكن الفساد يأتى فيه مزوقًا جذابًا وهو يغازل النفس بمشتهياتها ويراودها فى ضعفها وهو يقدّم لها وعدًا عاجلا فوريا باللذة بينما يقدم الواعظ الدينى وعدًا مؤجلا ولايجد معه مشهيات الفن وزخرفة الشعر والموسيقى والأغانى التى يخدّر بها الحواس . . فما تلبث اللحظة الفاسدة أن تجرف أمامها كل المؤثرات الطيبة . . وينام المشاهدون كل ليلة على الجانب اللذيذ المغرى من المسألة .

نحن أمام جهاز خطير يدخل إلى المخادع وغرف النوم .

وأمام برامج تصبح من فرط التكرار من قبيل المناهج السلوكية المقررة التى يتشربها الأطفال والشباب وتسرى فى دمائهم مع الشاى والقهوة والسيجارة وتتحول إلى عادات لافكاك منها . . ثم تتحول إلى سلوك . . ثم تصبح طباعًا وأنماطًا وملامح عصر .

هل نحن أمام جهاز سيغيّر العالم . . ؟ !

وقد يجيب البعض بأن المشكلة قائمة حتى فى البلاد التى شددت الرقابة على التليفزيون ومنعت إقامة دور السينما العامة . . فبرغم الحظر والرقابة والمنع ظهرت فيها مصيبة أخطر هى أشرطة الفيديو المتسللة والمهربة والأفلام الجنسية تعرضها الشلل والعائلات المحترمة فى بيوتها الخاصة . . وفيها من الغواية والإفساد والفحش أضعاف مافى السينما المباحة . . ومن وراء هذه الأشرطة المهربة تقوم تجارة عالمية منظمة ومكاتب مافيا جنسية متخصصة تعمل على نشر وتسجيل وترويج هذه البضاعة المدمرة وتدفع مبالغ مغرية للمثلات المشهورات فى مقابل دقائق من اللقطات الجنسية الفاضحة لإثارة فضول المشترى واجتذابه للصنف .

سوق نخاسة إلكترونية جديدة ضحاياها ملايين .

وهكذا تتنوع صنوف الإغواء التى يتعرض لها المواطن فمن ينجو من الإعلام الشيوعى اليسارى يقع فى حبال الإعلام الفاشى اليمينى ، ومن ينجو من غسل مخه فى الناحيتين يقع ضحية الإعلام المنحل فى النظم الغربية الديموقراطية ، ومن يلجأ إلى البلاد المحافظة التى تغلق على نفسها الأبواب والنوافذ وتحكم ترابيس المنع والرقابة لايسلم من تسلل أشرطة الفيديو وأفلام البورنوجراف من تحت عقب الباب . . ومن وراء كل هذا تقوم سوق المخدرات والكوكايين والهروين وأقراص المزاج وحقن الماكستون فورت تهيئ الجو وتعد المناخ .

طوفان من المؤثرات يسير بنا إلى عصر سدوم وعمورة جديد وفتن يقف منها الحليم حيرانا .

ويتساءل المتسائلون . . هل من حل ؟

وبرغم كل شيء.. وبرغم تحالف الظلمة على هذا العصر.. فأنا أرفض العنف كحل . . ولا أومن إلا بالوعى والحرية وإحياء الضمائر والمناقشة العلنية المفتوحة وفتح النوافذ على العيوب والاعتراف بالنقائص وعلاجها .

لارجوع إلى وراء . . ولارفض لمكتسبات العلم .

التليفزيون والسينما والراديو أدوات محايدة بريئة وهى علامات تقدم . . وإنما هى تصبح علامات تأخر بما يوضع فيها .

والحلّ هو ترشيد الإعلام عن طريق مائدة مستديرة يدير الحوار فيها حكماء العصر وعقلاؤه فى محاولة لإقامة مبادئ جديدة للرقابة الواعية على الكلمة المذاعة .

أما عصابات المافيا الجنسية والمخدرات فتحارب بأساليبها .

ثم يبقى بعد ذلك وقبل ذلك أن ينتصر كل منا فى حربه مع نفسه أولا ومن يخسر حربه مع نفسه يخسر فى كل الميادين ولن ينجيه قانون أو نظام أو أو عصبة أمم . . فهو قد خذل جميع القوانين حينما وضع سلاحه واستسلم للهوى من أول معركة .

فمن هناك لينصر ذلك الذى لم ينصر نفسه ؟

وفى كتاب المواقف والمخاطبات للنفرى يقول الرب لعبده :

الهوى رسول من رسل بأسى الشديد أرسلته إليك وفى الهوى نارى فإذا جاءك جاءتك نارى فادخلها . . قلت : كيف يارب أدخلها . . قال : لاتستجر بعلم ولا بمعرفة فإذا استجرت بهما أسرك الهوى وأسرهما . . وأعلم أنه لامجير من الهوى إلا أنا . . ولن تخرج من نار الهوى بعلمك ولا بمعرفتك . . وسوف تقيم فى النار حتى تأكل النار الجزء التالف من عقلك ومن نفسك . .

فإذا أكلت النار ذلك الجزء تطهرت وأدركت أنه لامجير من الهوى سواى فصرخت إلى فجئتك وصرفت عنك نارى فلم تعد إليك .

ويقول ربنا فى كتابه الكريم فى أجمل آيات التوكل :

(واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون) .

الأنفال – ٢٤

وذلك هو التدخل الإلٓهى اللطيف فى لحظات التردّى حينما يشرف الواحد منا على إهلاك نفسه فتأتى المشيئة الإلٓهية فتحول بين الواحد منا وشهوة قلبه فتنقذه .

وذلك هو الأمل الذى يفتحه الله للصارخين والمستنجدين حينما تغلق كل الأبواب وحينما يطمّ الطوفان وحينما لاتعود الحكمة تنجى ولاالعقل يفيد وحينما يشاء الله حسن الختام .

ادعو معى بحسن الختام .

الإنسان ذلك اللغز

عجيب أمر هذا الإنسان .

رقيق حنون عطوف رؤوف جداً . . فى أمريكا يتوقف المرور لأن قطّة خطر لها أن تتمخطر ببطء عبر الطريق . . ويتجمع الناس حول كلب مكسور الساق وقع من الدور السابع وتتسابق البلاغات إلى بوليس النجدة وإلى جمعية الرأفة بالحيوان وإلى جمعية الكلاب الضالة ويأتى طابور من العربات ويتحرك الموكب حاملا الكلب الجريح إلى مستشفى الكلاب ويظهر النبأ فى الصفحة الأولى من جرائد الإقليم ويتقاطر الزوار على الكلب الراقد فى جبيرة من الجبس وترفع جمعية الرأفة بالحيوان قضية على صاحب الكلب ويترافع محامون ووكلاء نيابة ويقرر القاضى غرامة كذا ألف دولار على الجانى المجرم الذى أهمل رعاية كلبه .

هذا الإنسان الرقيق الحنون العطوف الذى تحرك وجدانه وتحركت صحافته لكلب جريح .. هو نفسه وهو عينه الذى يلقى قنبلة ذرية على

هيروشيما وناجازاكى . . يقتل فيها ويجرح ويشوه سبعة ملايين ضحية آدمية بشرية . . مايزال بعضها يجرجر حياة بائسة مفعمة بآلام سرطان العظام والمثانة والكله والجلد . . بينما هو الإنسان القاتل المحترف مايزال مستمرا فى حرفته الرهيبة ، وقد تطورت صناعة الموت على يديه من قنابل ذرية إلى قنابل هيدروجينية إلى قنابل نيوترونية إلى قنابل ذرية نظيفة . وتأملوا معى كلمة « نظيفة » أى تقتل قتلا نظيفا دون أن تترك مخلفات إشعاعية .

ومصنع الموت أو البنتاجون ينفق على صناعة الموت أضعاف أضعاف ماينفق فى مشاريع التنمية وأضعاف أضعافماينفق على الحياة والعلاج والبناء والتعمير .

لاتسرعوا وتتهموا هذا الإنسان فى عقله . .

فهذا الإنسان لايمكن اتهامه بنقصان العقل ؛ فهو قد عبر الفضاء ومشى على القمر وأرسل سفنا إلى المريخ والزهرة والمشترى وأرسل أقمارا صناعية إلى الشمس . . وهو قد ابتكر أجهزة يتسمّع بها إلى همس الأمواج على أطراف المجرّة . .

وهو صاحب تاريخ حافل بالفكر والفلسفة من سقراط إلى برتراند رسل فهو إذن ليس ناقص العقل .

إذن كيف نفهمه وهو ينتقل من النقيض إلى النقيض فى لحظة . . وهو يتحول من الحنان إلى الوحشية ومن العقل إلى الجنون ومن الشهامة إلى الغدر ومن العبقرية إلى الحمق . . ؟

من هو ذلك الإنسان اللغز ؟ . .

الزوجة التى تخون زوجها القوى المكتمل مع رجل ضعيف عاجز جنسيا . .

والرجل الذى يمزق زوجته بسكين ويقول باكيا . . قتلتها لأنى أحبها . .

والأوروبى المتمدن تأتيه المدنية بالعلم ووسائل الترف والراحة والنظافة والعناية الطبية والحياة الحافلة بالمشوقات والمشهيات والسياحات الممتعة بطول الأرض وعرضها فيقابل هذه النعمة بالعكوف على المخدرات والإرهاب والعنف والانتحار .

ومريض القرحة يشرب السجائر وفى التدخين هلاكه .

والطبيب العليم الخبير يشكو الكبد ويشرب الخمر وفيها دماره . . هو ليس نقص علم ولانقص عقل فهو طبيب يعرف ماهى الخمر وماذا تفعل فى البدن . . وتراه فى عيادته ينصح مرضاه بعدم تعاطى الخمور . . ثم تراه يشربها فى بيته .

والكثرة على هذه الحال .

الغالبية بهذه الصورة من التناقض والتقلب وعدم الاتزان واضطراب المزاج واضطراب الأفعال والتباين بين الأقوال والأعمال . . والخلاف بين الظواهر والبواطن والمفارقة بين السر والعلن والتلون والتغير والتبدل . . والأقلية القليلة . .

وربما أقل من القليل . . هم أهل الكمال . . الأطهار فى السر والعلن . . الأبرار يداً وقلباً وضميرا . . أهل الثبات الذين لايتغيرون وإن تغيرت حولهم الدنيا . . ولايتبدلون ولو أغرتهم الغوايات وجاذبتهم المغريات .

الواحد منهم حضارة .

لو عثرت عليه فى الأدغال وبين البدائيين فهو حضارة وهو قد سبق الذين مشوا على القمر . . فهو صاحب المشوار الأطول والأشق فهو قاهر نفسه . . وهو مؤشر التقدم الحقيقى . . بين الكثرة الكثيرة التى تفعل مالاتقول وتقول مالاتفعل وهو الواحد الفرد المميز الذى له سحنة نفسية بين أغلبية غالبة هى على ماقلنا من الاضطراب . . ليس لها سحنة ولاوجه . . وإنما هى تتقلب مع الأحوال والأوقات والمصالح وتتبدل مع اللحظات وتنتقل من النقيض إلى النقيض ومن الموقف إلى ضده .

وهؤلاء هم أهل الهوى .

وأغلب الناس أهل الهوى .

ولايقر لأهل الهوى قرار .

لأن الهوى لايقر له قرار .

وهم مؤشر تخلف وإن لبسوا الحرير وتقنعوا بالشهادات وتفاخروا بالتكنولوجيا والاختراعات .

فالسؤال بالنسبة للإنسان ليس ماذا جمع من مال ، ولاماذا حصّل من علم ، ولا ماذا شيد ولا ماذا خترع . . ولكن ماذا صنع بنفسه أوّلا . . ذلك هو الإنجاز الأوّل . . وهو الأساس الذى سوف يبنى عليه كل مايأتى بعده . . وهو الأساس الذى يكون به تقييم كل شىء . .

وهو مانسميه بالأخلاق .

يقول الله لمحمد عليه الصلاة والسلام فى القرآن :

(وإنك لعلى خلق عظيم) .

لم يقل له « وإنك لعلى علم عظيم » .

فقد رأينا العلم فى أمريكا وأوروبا وروسيا وماذا يصنع بدون خلق . .
ورأينا أنّ الصعود الصعب هو أن تصعد على نفسك وتملك ناصيتها وليس أنْ تصعد إلى القمر وتمشى عليه .

ولهذا تحدّث القرآن عن المؤشر الحقيقى والأزلى للعظمة الإنسانية وهو العظمة الخلقية . . أما الأمجاد الأخرى فهى أمجاد قابلة للتقليد ، ألم تقلد اليابان التكنولوجيا الأمريكية فى سنوات قليلة وتتفوّق عليها وتزاحمها فى جميع الأسواق .

فمن استطاع أن يقلد النبى فى كمالاته الخلقية . . ومن استطاع أن يفوقه . . ؟ ؟

ذلك هو المعراج المستحيل على عامة الناس وجماهيرهم . . لايصعده إلا نبى . . ولايقوى على السير فيه إلا أفراد هم الصديقون والشهداء والأبرار والأولياء . . وهم معدودون فى كل أمة وفى كل عصر .

بهم تقوم أركان الدنيا ويحفظ الله ببركتهم الأرض .

وبانقطاعهم . . يهدم الله عمارة الكون . . ويقيم القيامة . . حينما لاتبقى إلا حثالة لاتستحق أن تطلع عليها شمس .

وفى إلهامات الصوفى محمد بن عبد الجبار ابن الحسن النفرى يقول له ربه عن يوم القيامة .

فإنى ماأزال أمسك بكل شىء حتى إذا فنى جلسائى وأوليائى هتكت الحجاب وهدمت السموات والأرضين شوقًا إليهم وليجلسوا منى مجالسهم من جديد .

الدجال يأتى على طبق طائر

خبر الأطباق الطائرة أصبح خبرًا متواترًا لدرجة يصعب معها تكذيبه . . وحجم المعلومات وشهادات الشهود أصبح يؤلف مجلدات .

وبعض هذه الأقوال أسطورى وبعضها يدخل فى عداد الروايات الخرافية وبعضها يدخل فى عداد المعقول . . والكلام كثير . . ولا يمكن أن يكون كل هذا الكلام بدون أساس .

والمبدأ فى نظرى مقبول تمامًا فلا يمكن أن يكون هذا الكون المؤلف من مئات آلاف الملايين والبلايين من النجوم والكواكب خرابًا بلقعا خاويا لا حياة فيه ولا حياة عليه باستثناء ذرة واحدة أو هباءة تافهة سابحة فى الفضاء اسمها الكرة الأرضية .

إن الأمر يكون شبيهًا بعمارة هائلة فيها آلاف البلايين من الشقق الخالية فيما عدا غرفة واحدة صغيرة فى بدروم اختصها الله وحدها دون غيرها بالسكان .. وهذا أمر بعيد الاحتمال وفى القرآن إشارة إلى وجود دواب فى

السماوات (ومن آياته خلق السموات والأرض ومابث فيهما من دابة) .
(٢٩ — الشورى)

القرآن يقول إذن بصريح العبارة إن الحياة مبثوثة فى الكون كله وإن السماوات مسكونة بدواب . كما أن الأرض مسكونة بدواب (والدواب هى كل مايدب بأرجل من إنسان وحيوان وغيره) .

والله يقول فى نفس الآية إنه سيجمع هذه المخلوقات إذا شاء (وهو على جمعهم إذا يشاء قدير) .

وهو يقول إن من علامات القيامة أنه سيخرج للناس دابة من الأرض تكلمهم (وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم) .

من أى أرض سوف يخرج الله الدابة . . والقرآن يقول إن هناك سبع أرضين . . ونحن لانعرف من هذه الأرضين إلّا أرضًا واحدة هى الّتى نسكنها . . ولانعرف أين توجد الأراضى الست الباقيات . . ولعلها كواكب بعيدة فى مجمعات نجمية بعيدة من الّتى نراها فى السماوات .

وإعجاز الآية فى إخراج الله الدابة من واحدة من هذه الأرضين الّتى فى السماوات ثم الإتيان بها لتكلمنا .

ماذا تكون تلك الدابة ؟ ! !

أهى إنسان أم حيوان أم حشرة . . وكلمة دابة تنطبق عليها جميعا ؟ ؟ ! !

وحقيقة أنها سوف تكلمنا يمكن أن يفهم منها أن الحضارات قد تقدمت فى تلك الكواكب البعيدة وأنهم سبقونا لدرجة أن الحمار هناك يمكن أن يتحدث اللاتينية بطلاقة كما يتحدثها علماء السوربون عندنا .

أو أن الله سوف ينطق الدابة بمعجزة . . الله أعلم .

وأسأل وتسألون . . وبأى وسيلة مواصلات سوف تأتى الدابة إنسانا كانت أم حيوانا إذا أخرجها الله من تلك الأراضى البعيدة ؟ ؟ ! ! على طبق طائر .. ربما .. لم لا .. إن الله يسوق كل شىء بأسباب وقوانين . . وهو ينزل المطر بمقدمة علمية محسوبة . ويجرى الرياح بتصريف محكم للضغوط ودرجات الحرارة . . فليس غريبا أن يبعث بهذه الدابة على ظهر عربة فضائية .

ومادام حدس الدين وحدس العلم اتفقا فالقرائن تصبح قوية .

وكتب الدين تحدثنا عن نزول المسيح ومجئ المهدى ومن قبلهما الدجال كمقدمات للساعة وكان النبى عليه الصلاة والسلام يستعيذ فى دعواته من فتنة الدجال .

وأى فتنة أكبر من قدوم رجل من السماوات على طبق يحيى الموتى وينزل المطر ويخضر الصحارى ويشفى المرضى ويدعى الألوهية .

إنها تكون الفتنة التى تقصم الظهور .

لقد أرسل الله موسى فى عصر السحر بما هو من نوع السحر (قلب العصا حية وشق البحر وتحويل المياه إلى دم) وأرسل عيسى عليه السلام فى عصر الطب بمعجزات فى باب الطب مثل شفاء الأبرص وإبراء الأعمى وإحياء الميت وأرسل محمدا عليه الصلاة والسلام فى عصر البلاغة بقمة البلاغة القرآن . . فلماذا نستبعد أن يبعث علينا الله فى عصر الدجل بالدجال العظيم الذى يقارع العلم السئ بعلم أسوأ منه .

وإذا كانت الأحاديث قد وصفته بأنه بعين واحدة . . فمن يدرى ربما

كان سكان تلك الكواكب بعين واحدة .

ولست أدعى بهذا تفسيرًا وإنما أحاول أن أفهم وأحاول أن أربط ظواهر متعدّدة بعضها ببعض . وظاهرة الأجسام الفضائية التى تظهر وتختفى تواترت بشكل لايمكن رفضها والطعن عليها . . وإلاّ لجاز لنا أن نطعن فى صدق الأحاديث النبوية فحجتنا الوحيدة أيضا هى تواترها .

وآخر ماجاءنا من أخبار هو ماحدث بالكويت من هبوط طبق طائر شهده أربعة أحدهم أمريكى والثلاثة الباقون عرب .

وآخر ماجاءنا من تحليلات علمية أن « شهاب تونجوسكا » وهو الانفجار الفضائى الذى حدث فى سيبريا فى ٣٠ يونية عام ١٩٠٨ وأحال ليل أوربا إلى نهار وأحرق مساحة ٢٢٠٠ كيلو متر مربع من الأشجار لم يكن شهابًا ولانيزكا لأنه لم يخلف حفرة فى الأرض ولأن تحليلات التربة أثبتت وجود عناصر صوديوم وزنك ورصاص وبورون وهى ليست مخلفات نيزكية كما أن النباتات الجديدة والحشرات التى تكاثرت ظهرت فيها طفرات تدل على تلوث إشعاعى مما يدل على مصدر للطاقة النووية . . والاستنتاج الوحيد أن الذى انفجر هو طبق طائر كان يجرى تشغيله بنوع من الطاقة النووية العالية .

القضية إذن جادة .

والأمر يجب أن يظل مفتوحا للاجتهاد دون تشنجات وأيضا دون مغالاة فى التأييد وجرى وراء الأساطير .

المستقبل

٣ أغسطس ١٩٨٠ – لندن – ويجمور ستريت .

السماء ضبابية . . والكل يهرول فى الشارع . . الأقدام السريعة تنهب الطريق هنا وهناك . . وأحيانا تتقافز عبر الخطوط البيضاء عند الإشارات . . لاأحد يتسكع . . ولاامرأة تتمخطر . . وإنما الكل يجرى ويحث الخطى وكأنما وراءه كرباج .

أتساءل . . هل هم الذين يسرعون أم أنا الذى أسير ببطء . . أحيانا كان يبدو المشهد وكأنه لقطة من أفلام شارلى شابلن القديمة التى يهرول فيها الممثلون بالحركة السريعة هنا وهناك .

وكنت أنا أيضا أبدو غريبًا مثل فيلم يدور بالحركة البطيئة .

ماالذى يجعل هؤلاء الناس يهرولون هكذا مسرعين ؟ ؟

هل هو البرد ! ! ؟

لم يكن الجو باردًا بل كان دافئا رطبًا يثير الخمول .

وقد رأيتهم . . نفس هؤلاء الأوروبيين . . فى الخرطوم وفى بغداد وفى الرياض وفى القاهرة وفى درجات حرارة ملتهبة يهرولون بنفس الخطوة السريعة .

إنها سلوكية ثابتة فيهم .

إنها السلوكية الأوروبية والسلوكية الشرقية وبينهما من الفارق مابين أغنية بطيئة لأم كلثوم تتموّج طربا وأغنية تتقافز جنونا من أغانى الستيريو .

كم تمنيت أن أدخل إلى داخل جمجمة أحد هؤلاء الذين يهرولون وأعرف بالضبط كيف يفكر .

لاشك أنهم يفكرون بطريقة مختلفة ويرون الدنيا بمنظار مختلف . . وكنت مازلت أسير بالحركة البندولية البطيئة وأتساءل . . ماهو الفارق بالضبط بيننا وبينهم . . ومن منا على الخطأ ومن منا على الصواب إن كان هناك خطأ وصواب .

قلت . . أنا أعلم على الأقل شيئًا عن نفسى . . وكيف أفكر كرجل شرقى .

لاشك أن مساحة العاطفة والخيال عندنا أوسع نحن الشرقيين ونحن نستشير قلوبنا قبل أن نستشير عقولنا ونرتجل أكثر مما نخطط . .

وعن نفسى . . فأنا لاأحتفل باللحظة كثيرا . . وأحيانا لاأعيش اليوم وإنما أتخطاه وأسكن بخيالى فى المستقبل وأعيش فى هموم الموت ومابعد الموت .

ولست وحدى فى ذلك الهم فالمصريون القدامى بنوا للموت أهراما لم يبنوا مثلها للحياة وعاشوا وغنوا ورقصوا وكتبوا الشعر والأناشيد لعالم مابعد

الموت . . وكانوا أسرع الناس إلى تلقف المسيحية ثم الإسلام لأنه حدثهم عن الاله الواحد الذى عبدوه وحدثهم عن الموت ومابعده وقال لهم إن الدنيا مجرد مزرعة للآخرة وإن حياة الآخرة هى الحياة الحقة التى لها الدوام . . وإن الحياة الدنيا لهو ولعب وزينة وتفاخر وإنها متاع الغرور . . فاستجابوا لهذا الكلام بكل نفوسهم لأن تلك كانت فطرتهم التى جبلوا عليها وعاشوا بها آلاف السنين . . بينما كان الإنسان الأوروبى إنسانا مختلفا . . لم ينظر الأوروبى أبدا بهذا المنظار للدنيا ولم يعش فى همّ الموت ومابعده . . وإنما كان دائماً مهموما بلحظته يحاول أن يعيشها كأعرض وكأحفل ماتكون باللذة والألم . . وكان يستشير عقله قبل عاطفته ويخطط ولايرتجل . . ويعيش للواقع ولايحفل بالغيب .

ولهذا كنت تراه دائما ناهضا بالخطوة السريعة إلى العمل حريصًا على قطف الثمر مسارعا إلى الاستمتاع بيوم العطلة بلا حدود ودون التفات إلى حرام أو حلال ودون توقف عند ماتنذر به الكتب من عذاب وعقاب فى الآخرة .. فلاحقيقة فى نظره سوى هذه الحياة وليس بعدها شىء وليس وراءها شىء .

وكانت فضائله هى فضائل العمل فهو إنسان صادق ملتزم يحترم الكلمة والطابور والقوانين المدنية وإشارات المرور لأن هذه الأخلاقيات هى الوسيلة المثلى للانتفاع بالحاضر واستثمار اللحظة وليس لأن هذه الأخلاقيات هى الوصايا العشر التى أمر بها الرب .. فهو أخلاقى لأسباب انتهازية وليس لأسباب دينية . . وهى أخلاقيات نقابة وتبادل منافع وانضباط عمل .

وهذا التركيز بلاحدود على استثمار الحاضر بدون مخاوف دينية وبدون

هموم مستقبلية هو الذى أثمر هذه الحظوظ الدنيوية الوافرة فى كل شىء.

ولو فهمنا نحن الدين فهمًا صحيحًا لما كنا أقل منه حماسًا لاستثمار الحاضر ولكانت عقولنا أكثر منهم انطلاقا لنزرع ونحرث فى مزرعة الدنيا أكثر لنحصد فى الآخرة أكثر فالإسلام دين علم وعمل وعقل.

ولكن الدين جاء فى خيال الأكثرية مقترنًا بالزهد ورفض الدنيا والكسل واتهام العلم والحياة فى خوف والانزواء فى صومعة والعزلة والسلبية والرهبانية والتعبد الخاوى.

لقد أخطأوا فهم الدنيا.

وأخطأنا نحن فهم الدين.

وتحالفت فروق الطقس على مضاعفة الفوارق وتوكيدها فظهرت هذه السلوكية الأوروبية النشطة الناهضة بهمة وإيجابية إلى النفع والانتفاع فى مقابل السلوكية الشرقية الزاهدة المتراخية الكسول القانعة الخاملة الرافضة المنعزلة المنطوية فى تأمل خاو.

كلانا مريض ومنحرف.

وكنت مازلت أنظر إلى فيلم شارلى شابلن والممثلين الذين يتقافزون فى حركة سريعة حولى فى ويجمور ستريت وأبتسم.

وكانوا هم ينظرون إلى حركتى البندولية البطيئة ويبتسمون.

وكنت أتخيل إنسانًا خياليًا يقع فى المنطقة الصحية السليمة بيننا.. إنسانًا جمع بين نشاط الأوروبى وعقلانيته واحتفاله باللحظة واحتشاده لإحياء الحاضر وبين إيمان الشرقى الذى يتخذ وجه الله هدفا لكل أعماله.. إنسانا يستعمل عقله ويحترم عاطفته ويعيش ليومه ولاينسى غده.

ترى هل يولد هذا الإنسان الثالث من تلاقح الفكرتين .

وكيف ومتى . . وأين .

وهل هو المستقبل .

وهل جاء الدور علينا لنعبر إليهم بحضارتنا كما عبروا إلينا بحضارتهم .

وكيف يكون العبور هذه المرة .

ذلك هو تاريخ القرن الواحد والعشرين .

لماذا خلق الله الدنيا

من الميلاد إلى الموت والإنسان فى صراع .

مادته وترابه يشدّانه إلى تحت ، وروحه تشدّه إلى فوق .

صراع بين عدم . . ووجود . .

والعدم ليس مجرد خواء . . أو لاشىء ، وإنما العدم قوة سالبة بمثل ما أن الوجود قوة موجبة .

المرض والشيب والشيخوخة والذبول والهزال قوى عدمية سالبة ، غلبت على الجسم . فجعلته مريضا ذابلا هزيلا .

فإذا غلبت هذه القوى العدمية على النفس ، جعلت المزاج النفسى متشائماً يائساً قلقا سوداويّا كئيباً .

فإذا غلبت على القلب نزلت به إلى درك الحقد والأنانية والكبر والغرور والنفاق والشهوة .

فإذا غلبت على العقل أظلمته بغواشى الجهالة والغباء والبلادة .

فإذا أغشت البصيرة ألقت بها فى مهاوى الكفر والشرك والظلم .

وللعدم جيوش وفرسان . . وله جنود مجندة .

السوس الذى ينخر . . والبكتيريا التى تحلل وتهدم . . والفيروسات التى تنشر الفوضى والتلف . . مروجو المخدرات ، وناشرو الفتن ، وتجار الشهوات .

التتار ، الهكسوس ، والوندال ، الذين هدموا الحضارات .

كل هؤلاء جنود العدم وفرسانه !

ومن وراء الغيب . . إبليس وذريته ، أكبر قوة سالبة عدمية . . شعاره ورايته التى يلوح بها . . أنا . . أنا . . أنا خير منه . .

وهو يجرى فينا مجرى الدم ، بمقدار مايقول الواحد فينا . . أنا . . أنا . . أنا خير منه .

ولكن الله لم يتركنا نهبًا للقوى العدمية السالبة وإنما أعطانا أعلى شحنة موجبة حينما نفخ فينا من روحه .

والله هو الفاعل الإيجابى الخالص نفخته روح ، وكلمته روح ، وحينما تلابس روحه المادة ، تخلع عليها الصورة والنظام والحياة والحركة والشباب والصحة والعقل والوعى والقيم ، والسجايا والفضائل .

والحياة بالروح ، هى الحياة الحقّة بلامرض وبلا موت ، وبلا شيخوخة .

وغلبة الروح على النفس ، تنزع بها إلى الكمال والنقاء والطهر .

وغلبة الروح على العقل تنزع به إلى الإدراك ، والعلم والمعرفة .

وغلبة الروح على الجسد تداوى أسقامه . . وتشفى أمراضه .

ولعالم الروح جنوده المجندة من الملائكة مثلما لعالم الظلمة شياطينه .

وقد أطلق الله القُوَى السالبة العدمية ، تنازع القَوَى الموجبة الوجودية بمشيئته وخطته . . وانفرد بالهيمنة لاينازعه أحد فى ملكه .

وخلق النفس الإنسانية قابلة للانفعال بالقوتين السالبة . . والموجبة قابلة للانحدار الإبليسى أو التحليق الملائكى . . وجعلها مجال صراع وحلبة قتال .

(لقد خلقنا الإنسان فى كبد) .

أى فى مكابدة .

ومن خلال هذا القتال ينكشف محتوى النفس وينجلى سرها وتتقرر منزلتها ويظهر مرادها . . ويتأكد انتماؤها .

وهذه هى الدنيا وحكمتها .

(الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا) .

الدنيا هى المناسبة . . هى المناسبة للتعرف .

هى سائل التحميض الذى يظهر الظل والنور فى الصور الفوتوغرافية .

وهكذا تفعل بنا الدنيا ، تظهرنا على حقائقنا وتظهر مافينا من ظلمة ونور ، فنرى بعضنا البعض فى عيون بعضنا البعض . . ونتعرف على أنفسنا من خلال أفعالنا ويفضى كل واحد منا بما يكتم فى قلبه فى لحَظة أو أخرى .

وهكذا تتفاضل النفوس وتتقرر مراتبها ودرجاتها .

هى مناسبة للتعرف ، خلقها الله ليعطينا من فضله ومن عدله ، بحسب استحقاقات يعلمها منذ الأزل ، ولانعلمها نحن .

والدنيا هى حادثة إعلامنا وتعريفنا بأنفسنا . وإعلام وتعريف كافة شهود الحدث من إنس وجن وملائكة وشياطين .

فلا تصح القضايا إلاّ إذا تمّ إعلام جميع الأطراف .

وعلْم الله لايقوم حجّة على خلقه إذا كان هؤلاء الخلق جاهلين .

فكان لابدّ من إعلام شامل كامل .

والدنيا هى ذلك الإعلام الشامل الكامل .

وهى ملف الأحوال والأعمال والنوايا والخفايا لكل نفس .

ثم بعد ذلك يأتى النشر والحشر والجمع والفصل .

وقد رتب الله كل هذا من أجل أن يعطى ويهب ويمنح . . فما خلقنا إلّا ليعطينا .

لم يخلقنا لعذاب .

وماأنزل علينا الشرائع والتكاليف إلّا ليسعدنا

(ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى) .

وفى سنته أن يعطى كل مخلوق مايحب .

الذى يحب الدنيا . . يعطيه من الدنيا ، والذى يحب الآخرة يعطيه من الآخرة . . والذى يعشق النور ، يأخذ بيده إلى النور .

والذى يعشق الظلمة ، يتركه للظلمة .

ومن النفوس مالاتلذ لها إلا حياة الاشتعال والاحتراق والشهوات . . تلك النفوس كانت بضعة من النار فانتهت إلى النار بحكم المشاكلة والمجانسة ولم يصح لها مقام إلا فيها ولم يكن لها حظ من جنة لأنها أصلا لاتحب الجنة . . إنما يعطى الله كل نفس ماتحب .

(وآتاكم من كل ماسألتموه) .

(كلاًّ نُمِدّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وماكان عطاء ربك محظورا) . .

فقد جعل الله من نفسه وكيلا لنا ينفذ لنا رغباتنا . . ثم تكون كل نفس بعد ذلك بما كسبت رهينة .

وإذا كان الله يقول :

(وماخلقت الجن والإنس إلّا ليعبدون) .

فليس ذلك عن احتياج منه لعبادتنا ، وإنما لاحتياجنا نحن لعبادته . . ولأن العبادة هى الحبل السرى الذى يربطنا به والذى عن طريقه يأتى المدد والعطاء مثلما يأتى الغذاء للجنين من الأم عن طريق الحبل السرى ، فإذا انقطع هذا حبل انقطع عن الجنين غذاؤه . . وبالمثل إذا قطعت هذا الحبل بينك وبين الله ، فقد حرمت نفسك من شريان المدد والعطاء ولم يحرمك ربك بل أنت الذى حرمت نفسك وقطعت رحمك .

وإنما الله رحمة خالصة ، وعطاء خالص ، وقرب خالص .

وإنما الجفوة والبعد والقطيعة منا .

وماالدنيا بكل مافيها إلّا عطاء عاجل مؤقت يعقبه فى الآخرة عطاء آجل دائم فما خلقنا الله إلّا ليعطينا فى العاجل وفى الآجل .

ألم ينفخ فينا روحه ويخلع علينا أسماءه ويسجد لنا ملائكته ويسخّر لنا سماواته ويفتح لنا كنوز أرزاقه ويطعمنا كفاراً ومؤمنين ثم بعد ذلك يعدنا بميراث الخلود ، فماذا بعد ذلك .

وهل فى الإمكان عطاء أكثر؟

لو كان هناك أكثر فإنه هو أيضا الوحيد القادر على إعطائه .

فهو وحده معطى الكثير والأكثر والكوثر .

فهو يقول لعبده :

(إنا أعطيناك الكوثر) .

ومن أجل ذلك خلقه .

فما خلق إلّا ليعطى وماخلق إلّا ليرحم .

ذلكم الله ربكم لايكافئه ثناء ولايتناهى إلى قدره حمد .

لا إله إلّا هو له الحمد فى الأولى والآخرة .

دواء لكل داء

سيداتى وسادتى . . هل تعلمون مامعنى أن الله موجود . .

معناه أن العدل موجود والرحمة موجودة والمغفرة موجودة . .

معناه أن يطمئن القلب وترتاح النفس ويسكن الفؤاد ويزول القلق فالحق لابدّ واصل لأصحابه .

معناه . . لن تذهب الدموع سدى ولن يمضى الصبر بلاثمرة ولن يكون الخير بلامقابل ولن يمر الشر بلا رادع ولن تفلت الجريمة بلاقصاص . .

معناه أن الكرم هو الذى يحكم الوجود وليس البخل . . وليس من طبع الكريم أن يسلب مايعطيه . . فإذا كان الله منحنا الحياة فهو لا يمكن أن يسلبها بالموت وإن الموت لا يمكن أن يكون سلبًا للحياة . وإنما هو انتقال بها إلى حياة أخرى بعد الموت ثم حياة أخرى بعد البعث ثم عروج فى السموات إلى مالانهاية .

معناه أنه لاعبث فى الوجود وإنما حكمة فى كل شىء.. وحكمة من وراء

كل شيء .. وحكمة فى خلق كل شيء .. فى الألم حكمة وفى المرض حكمة وفى العذاب حكمة . . وفى المعاناة حكمة وفى القبح حكمة وفى الفشل حكمة وفى العجز حكمة وفى القدرة حكمة . .

معناه ألّا يكفّ الإعجاب وألّا تموت الدهشة وألّا يفتر الانبهار وألا يتوقف الإجلال فنحن أمام لوحة متجددة لأعظم المبدعين .

معناه أن تسبح العين وتكبّر الأذن ويحمد اللسان ويتيه الوجدان ويبهت الجنان . .

معناه أن تتدفق نافورة القلب بالمشاعر وتحتفل الأحاسيس بكل لحظة وتزفّ الروح كل يوم جديد كأنه عرس جديد . .

معناه ألا نعرف اليأس ولانذوق القنوط . .

ومعناه أن تذوب همومنا فى كنف رحمة الرحيم ومغفرة الغفار . .

ألا يقول لنا ربنا (إن مع العسر يسرا) وأن الضيق يأتى وفى طياته الفرج . . فأى بشرى أبعث للاطمئنان من هذه البشرى .

ولأن الله سبحانه . . واحد . . فلن نتقسم على أنفسنا ولن تتوزّعنا الجهات ولن نتشتت بين ولاء لليمين وولاء لليسار وتزلّف للشرق وتزلف للغرب وتوسّل للأغنياء وارتماء على أعتاب الأقوياء . . فكل القوة عنده وكل الغنى عنده وكل العلم عنده وكل مانطمح إليه بين يديه . . والهرب ليس منه بل إليه . . فهو الوطن والحمى والملجأ والمستند والرصيد والباب والرحاب . .

وذلك الإحساس معناه السكن والطمأنينة وراحة البال والتفاؤل والهمة والإقبال والنشاط والحماس والعمل بلا ملل وبلا فتور وبلا كسل وتلك ثمرة

« لا إله إلّا الله » فى نفس قائلها الذى يشعر بها ويتمثلها ويؤمن بها ويعيشها .

وتلك هى الصيدليّة التى تداوى كل أمراض النفوس وتشفى كلّ علل العقول وتبرئ كل أدواء القلوب .

وتلك هى صيحة التحرير التى تحطم أغلال الأيدى والأرجل والأعناق ، وهى أيضا مفتاح الطاقة المكنوزة فى داخلنا ، وكلمة السر التى تحرك الجبال وتشق البحور وتغيّر مالايتغير . .

ولم يخلق إلى الآن العقار السحرى الذى يحدث ذرّة واحدة من هذا الأثر فى النفس . .

وكل عقاقير الأعصاب تداوى شيئا وتفسد معه ألف شىء آخر .. وهى تداوى بالوهم وتريح الإنسان بأن تطفئ مصابيح عقله وتنومه وتخدّره وتلقى به إلى قاع البحر موثوقًا بحجر مغمى عليه شبه جثة .

أما كلمة لا إله إلّا الله فإنها تطلق الإنسان من عقاله وتحرره من جميع العبوديات الباطلة وتبشره بالمغفرة وتنجيه من الخوف وتحفظه من الوسواس وتؤيدّه بالملأ الأعلى وتجعله أطول من السماء هامة وأرسخ من الأرض ثباتا . . فمن استودع همّه عند الله بات على ثقة ونام ملء جفنيه . .

ولأن الله هو خالق الكون ومقدّر الأقدار ومحرك المصائر . . فليس فى الإمكان أبدع مما كان .. لأنه المبدع بلاشبيه لايفوقه فى صنعته أحد ولايضاهيه فى كماله أحد . . فلن تعود الدنيا مسرحا دمويا للشرور وإنما درسًا رفيعا من دروس الحكمة .

ولأن الله موجود فإنك لست وحدك . . وإنما تحفّ بك العناية حيث

سرت وتحرسك المشيئة حيث حللت . .

وذلك معناه شعور مستمر بالاثتناس والصحبة والأمان . . لاهجر . . ولا غدر . . ولا ضياع . . ولا وحدة . . ولاوحشة ولا اكتئاب . .

وذلك حال أهل « لا إله إلّا الله » . .

يذوقون شميم الجنة فى الدنيا قبل أن يدخلوها فى الآخرة وهم الملوك بلاعروش وبلا صولجان . . وهم الراسخون المطمئنون الثابتون لاتزلزلهم الزلازل ولاتحركهم النوازل . .

تلك هى الصيدلية الإلهية لكل من داهمه القلق وفيها علاجه الوحيد . . وفيها الإكسير والترياق وماء الحياة الذى لايظمأ بعده شاربه . . وفيها الرصيد الذهبى والمستند لكل ماتتبادل على الأرض من عملات ورقية زائلة متبدلة . . وفيها البوصلة والمؤشر والدليل . . وفيها الدواء لكل داء .

خطيئة الصوفية الكبرى

كانت ربه الصوفية الكبرى حينما قالوا فى لحظة وجد .. لا تصلح المحبة بين اثنين حتى يقول الواحد للآخر .. يا أنا .

ولم يحدث أبداً فى تاريخ الغرام أن تحول المحب والمحبوب إلى شخص واحد إنما ظلا اثنين دائماً وأبدا . لم يتوحّدا إلاّ فى لحظة وهم أو فى خيال شاعر أو فى هذيان الفراش ذات مساء .

وسقطة الصوفية أنها عاشت ذلك الهذيان كأنه واقع فاتخذ الصوفى حبه لله بابًا ليقول :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا
نحن روحان حللنا بدنا

وهكذا سقط أكثرهم فى خطيئة الحلول والاتحاد والتجسد ، ثم فى وحدة الوجود الوثنية التى جعلت من الله عين كل شىء .. وجعلت الصوفى العاشق يخاطب أى شىء وكل شىء على أنه الله ليس باعتباره آية الله

وصنعته وإبداعه وإنما عين الله وذاته .. فقال الحلاج .. أنا الله .. الله فى الجبه .. وقال البسطامى .. سبحانى ما أعظم شأنى .. والله إن لوائى أعظم من لواء محمد ولأن ترانى مرة خير لك من أن ترى الله ألف مرّة .

وقال فى لوثة أخرى :

رفعنى الله بين يديه وقال .. أن خلقى يحبون أن يروك فقلت زيّنى بوحدانيتك وألبسنى أنانيتك وارفعنى إلى أحديّتك حتّى إذا رآنى خلقك قالوا رأيناك .. فتكون أنت ذاك ولا أكون أنا هناك .

ثم تغالى الصوفية فى تعظيم محمد وجعلوا منه الرحمن الذى استوى على العرش والعقل الأوّل والنور الذى انشقت عنه أنوار النجوم والكواكب والأكوان بكافة مراتبها . .

ثم أسرفوا حتّى جعلوا التوحيد خطيئة لأنه يشترّط اثنين رب وعبد يوحده .. وهم لايعترفون إلّا بواحد .. فقال ابن الفارض :

ولو أننى وحدت ألحدت وانسلخت
من آى جمعى مشركا بى صنعتى

فجعل من التوحيد إشراكا ، ومادام كل شىء هو الله فكل من عبد أى شىء فهو على حق حتّى من عبد الصنم والحجر والنار والشمس والثعبان .

فقال ابن الفارض :

وإن عبد النار المجوس ومانطفت
كما جاء فى الأخبار من ألف حجة
فما عبدوا غيرى وإن كان قصدهم
سواى وإن لم يعقدوا عقد نيتى

ومن هذا المنحدر الخطر انزلق بعضهم إلى القول بأن كل أنواع العبادات على حقّ . . فكل شيء هو الله وما ثم إلّا الله . . ثم أنكروا العذاب لأن الله لا يمكن أن يعذب نفسه وتأولوا آيات النار فى الآخرة فقالوا إن المجرمين يتنعمون فى النار كما يتنعم الأبرار فى الجنة وأن الله يجعل النار عليهم برداً وسلاماً بعد قضاء المدة واستيفاء الحقوق وأن العذاب مشتق من كلمة العذوبة .

وقال أحد شيوخ الحلولية حينما استفزوه لقتال العدو .

وكيف أقاتل الله (فكل شيء فى نظره هو الله) .

وقال ابن الفارض عن صلاته لله إنه إنما تصلى نفسه لنفسه إذ هو الله عينه .

لها صلواتى بالمقام أقيمها وأشهد فيها أنها لى صلت

كلانا مصل واحد ساجد إلى حقيقته بالجمع فى كل سجدة

وما كان لى صلّى سواى ولم تكن صلاتى لغيرى فى أداء كل ركعة

وليس معى فى الملك شيء سواى والمعية لم تخطر على المعيّى

ومازلت إياها وإياى لم تزل ولافرق بل ذاتى لذاتى أحبت

فقد رفعت تاء المخاطب بيننا وفى رفعها عن فرقة الفرق رفعتى

تحققت أنا فى الحقيقة واحد . وأثبت صحو الجمع محو التشتت

فجعل من نفسه كل شيء فهو الممد والمستمد والفاعل والقابل والرب والعبد . .

ونفسى كانت من عطائى مُمَدّتى

وبه تدور الأفلاك

فبى دارت الأفلاك فاعجب لقطبها المحيط بها والقطب مركز نقطتى

وماسار فوق الماء أو طار فى الهواء أو اخترق النيران إلّا بهمّتى

إلى رسولاً كنت منى مرسلاً وذاتى بآياتى على استدلت

والأمر كله أشبه بنفس تنظر إلى نفسها فى مرآة

وشاهد إذا استجليت نفسك ماترى بغير مراء فى المرايا الصقيلة أغيرك فيها لاح أم أنت ناظر إليك بها بعد انعكاس الأشعة .

ورماه أهل زمانه بالكفر والفسوق والإباحة وهم معذورون .

ورفض الإمام ابن حنبل أن يسير فى جنازة الحرث المحاسبى لتصوّفه واختلفت سكة أهل الشريعة عن سكة الصوفية . . . أهل الشريعة جعلوا الحكم للعقل والنقل . . والصوفية جعلوا الحكم للذوق - والكشف والإحساس الذاتى . ومن ثمّ وقعوا فى الخلط لأن الكشف فيه الشيطانى والروحانى ، ويستحيل التمييز بدون ميزان الشريعة . . كما أن الأحاسيس الذاتية تتفاوت وتختلف بعدد الناس . . يقول الله عن الوحى الشيطانى . . (شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) . فالشياطين يمكن أن يكون لها وحى ويمكن أن تؤتى أصحابها الكشف والخوارق .

وهكذا انحدر بعض غلاة الصوفية إلى أسوأ من الدروز الذين قالوا بألوهية الحاكم بأمر الله ، والعلويين الذين قالوا بألوهية على بن أبى طالب ، وبعض فرق اليهود الذين قالوا بألوهية عزير ، وبعض فوق النصارى الذين

قالوا بألوهية عيسى فقد قال بعض منهم بألوهية نفسه . . وألوهية كل شيء .

فقال الحلاج :

سبحان من أظهر ناسوته

سر سنا لاهوته الثاقب

ثم بدا فى خلقه ظاهرا

فى صورة الآكل والشارب

وماحب الرجل للمرأة عندهم إلّا حب الله لنفسه .

وعن الاسم الإلّهى الذى وصف الله فيه نفسه بأنه « الظاهر » توقف ابن عربى فقال بأنه تعالى عين ماظهر :

فلا تنظر العين إلّا إليه

ولايقع الحكم إلّا عليه

وقال مع أصحاب وحدة الوجود بأن الله مجموع ماظهر ومابطن . .

ونسى باقى الآية التى تصف الله بأنه :

هو الأول والآخر والظاهر والباطن .

ومعناها الواضح أنه الأول قبل كل ماظهر والآخر بعد هلاك كل الظهورات ، فهو إذن متعال عليها جميعاً مفارق لها وبائن عنها .

وقال ابن عربى فى كتابه الفصوص فى وحدة وجود هندية صريحة :

فما أرى بعينى إلّا عينه إذ أعاين

وقال فى بيت آخر :

جمع وفرق فإن العين واحدة

وهى الكثير لاتبقى ولاتذر

وقال :

الحق المنزه هو الخلق المشبه

ويتناقض ابن عربى بين كتاب وكتاب فنراه فى الفتوحات يقول بأن الله موجود وأن ماسوى الله من أعيان ومخلوقات لها أيضا وجود وثبوت ولا يمكن أن يكون الرب عين العبد ولا يمكن أن يكون هناك جمع فى العينين فيقول :

كنْه وصفًا ولاتكنْه ذاتًا فعيْن المحال بادى

أى تخلّق بأخلاق الله ولكن لا تحاول أن تكون الله فهذا محال . . ومحال أن يكون العبد عين الرب ، ومحال أن تتمّ الوحدة والجمع بين العينين ، وإنما الرب بائن مباين مفارق أبدًا وأزلا ومتعال على مخلوقاته .

ثم يعود فيثبت وينفى فى نفس الوقت :

فما أنت هو بل أنت هو وتراه

فى عين الأمور مسرحا ومقيدا

فقال بإطلاق الذات الإلٓهية وتقييدها .

ثم بلغ غاية التطرف فقال بأن الله هو كل شىء حتى الباطل . . ولهذا لا يجب أن تنكر الباطل .

لاتنكر الباطل فى طوره

فإنه بعض ظهوراته

أى بعض ظهورات الله .

وتكاد تجد جميع الفلسفات فى كتب ابن عربى تجد أرسطو وتجد أفلاطون وتجد كانت وهيجيل وهيوم وليبنتز . . وتجد وحدة الوجود الهندية . وتجد الثنائية والتثليث والتجسيد والتجريد والوجودية . . وكل ماقيل ويقال

فى المعرفة الإلهية سلبا وإيجابا تجده فى سطور ابن عربى . وكتبه تحفل بالرأى ونقيضه وبالفكرة وضدّها ويكاد يكون بحرًا طامياً متلاطم الموج . . وأحيانا لاتدرك ماذا يريد أن يقول ولاتعرف كيف تضع له تصنيفا . . هل هو شاعر أو أديب أو مؤرخ أو مفكر أو فيلسوف وهل هو ربانى أو شيطانى وهل هو مسلم أو بوذى أو برهمى . . ولاشك أن فيه كل هؤلاء . . والرجل أمة وحده . . وهو بالقطع لايمكن أن يقبل كله وأيضا لايمكن أن يرفض كله .

وهو ظاهرة فى تاريخ الصوفية والفكر الإسلامى جديرة بأن يدرسها الخاصّة . . ولكنى لاأنصح العامة بقراءته . . فكل من يخوض بحر ابن عربى بدون خلفية دينية فلسفية وبدون مجداف الشريعة هو لامحالة هالك . . وكل من يغرق فى بحره لايخرج .

وقد انسلخت الصوفية إلى طرائقية بعدد المشايخ ، كل طريقة لها شيخها وأورادها . وقد غالت كل طريقة فى طاعة شيخها حتّى طلبت من المريد أن يكون بين يدى شيخه كالميت بين يدى غاسله أى يسلم إليه تسليماً أعمى فى كل شىء .

وقال الشعرانى :

من اشرك بشيخه شيخًا آخر فكأنما أشرك بالله .

وجعلت كل طريقة أورادها فوق القرآن . . بل نهى بعض المشايخ مريديهم عن قراءة القرآن وقالوا . . الورد يكفى .

وغالى بعض الصوفية فى الزهد والتزهد إلى درجة طلب الفقر ولبس الخرق وصوم الدهر وعدم الزواج وعبادة الأضرحة والتواكل والتبطل والتسول والحياة على الخبز الأسود والماء وجنح البعض الآخر إلى

العكس فظهرت فرق صوفية تدعو إلى الاستمتاع وتبيح التهتك وتحض عليه ومن هؤلاء ابن أبي الغراقيد الذى ادعى بأن الله حلّ فى آدم وفى إبليس وفى كل شيء وأباح اللواط وزعم أن اللواط هو إيلاج نور الفاضل فى المفضول . . واستباح نساء أتباعه ليولج نوره فيهن . . كما أقبلت عليه المريدات لتأخذ كل واحدة نصيبها من نوره . . وقد صلب ابن أبي الغراقيد فى خلافة الراضى سنة ٣٢٢ هجرية . . كما صلب الحلاج . .

وبهذه المغالاة فى العقيدة والفكر والسلوك خرج معظم هذه الفرق عن الإسلام وأصبحوا أشبه بالهيبى . . والصعاليك . . والفنانين الرافضين والشعراء المتتاثين .

وكان طبيعيا ماأعلنه الوهابيون من حرب على هذه الطائفة بكافة فرقها .

ومازالت الحرب قائمة إلى اليوم بين الطائفتين . . بين الصوفية الذين يسمون أنفسهم بأهل الحقيقة وبين خصومهم من أهل الشريعة وعلماء الظاهر وعلماء النقول الذين يقول عنهم الصوفية إنهم ياخذون علمهم ميتا عن ميت بينما هم يأخذون علمهم عن الحيّ الذى لايموت .

وللإنصاف والحق ليس كل الصوفية أهل انحراف وكفر وتطرف وليس كلهم أهل خرق وبدع وشعوذات . . وإنما مازال فيهم أهل ورع وتقوى والتزام ممن وقفوا عند . . إياك نعبد وإياك نستعين . . ينزهون ربّهم عن كل هذه الترهات . . ولاتفارقهم كلمة . . ليس كمثله شيء . . رافضين التشبيه والتجسيد والحلول والاتحاد ووحدة الوجود . . ورافضين لكل هذه المتاهات الفكرية وشعارهم الدائم . . إن العجز عن درك الإدراك إدراك . . وإن كنه الله مستحيل إدراكه . . وإن العجز فيه هو عين معرفته . . وإن الدين هو

إسلام الوجه لله والعمل الصالح ومكارم الأخلاق والإيمان بكل ماجاء من رسول وكتاب . . كما أن بحر الصوفية ليس كله حيتان وأسماء قرشك قرش وثعابين وإنما أيضا فيه لآلئ ومراجين ودرر غاليات من درر الحكمة .

وتجد عند الصوفية أعذب الكلام كما تجد بين الملترمين منهم قمماً من الإيمان والإحسان ومثلا عظيمة من الجهاد فى الله والتفانى فى عبادته ومن الإنصاف أيضا أن نقول إن البعض من الطائفة الأخرى من أهل الشريعة وعلماء الظاهر والفقهاء تطرفوا هم أيضا وخرجت منهم فرق تحرم كل شيء وتشدد علينا فى كل شيء وتكاد تجعل الحياة مستحيلة . . وقد عرفنا طائفة التكفير والهجرة فى مصر وسمعنا عن طائفة التبليغ والنور فى مكة التى خرج منها المهدى واحتل الكعبة مع عصابته . . وكلتاهما نادتا بنفس الشعارات . . وهى شعارات مازال يرددها ويروجها بعض الفقهاء إلى الآن بأن الإذاعة حرام والتليفزيون حرام والسينما حرام والبنوك حرام ومهنة الحلاقين كفر وحلق الذقن كبيرة من الكبائر وخروج المرأة للعمل كفر وصوتها عهر والمدنية الغربية بكل مافيها إلحاد وزندقة والديمقراطية الغربية ضلال . . والموسيقى والتصوير والغناء والمسرح فنون يجب تحريمها تحريما قاطعا . . ومع ذلك نراهم يركبون السيارات ويستخلمون الكاسيت والمنشورات المطبوعة لنشر دعوتهم . . ونجد فى بيتهم الكهرباء والمصاعد والسخانات . . ونراهم يخرجون على الكعبة بالمدافع الرشاشة . . فمن أين أتوا بكل هذه الوسائل أليس من المدنية الغربية الكافرة التى يرفضونها . . لماذا إذن لم يخرجوا علينا بالسيوف والدروع . . ولن تسمع منهم إذا جاء ذكر الإسلام إلّا قطع

الأيدى والجلد والرجم وشعارهم . . لااجتهاد مع نص . . ومع ذلك هم يعلمون أن النبى عليه الصلاة والسلام منع قطع الأيدى أثناء الحرب وعمر منع قطع الأيدى فى عام المجاعة . . اجتهد الاثنان رغم وجود نص قرآنى مطلق بقطع يد السارق بلا استثناء . . فكيف احتكم الاثنان إلى العقل رغم وجود النص وكيف استثنى كل منهما . . ذلك درس عظيم فى عقلانية الإسلام من النبى وخليفته . . ولكن نسمع من حولنا اليوم وفى نهاية القرن العشرين وفى عصر العلم من يريد أن يعطل العقل باسم الدين وباسم النص . . وينسى أن العقل العربى معطل بما فيه الكفاية من مئات السنين . . بل هو مغمى عليه . . بل غائب ولاوجود له . .

وتلك خطيئة وبليّة يمكن أن تكون أفدح من خطيئة المتصوفة لأنها ستكون خطيئة مسلحة بسلطان الحاكم خطيئة ستعود بالأمة الإسلامية بجرة قلم إلى عصر الخيام والحريم وإلى عصر ماقبل الفحم والبخار وإذا قلت لهم لو قطعنا يد السارق فى عشرة جنيهات فماذا نفعل فى سارق العشرة ملايين بالرشوة والاختلاس والتزييف والعمولة . . ولانجد لمثل هذه الأشياء نصًّا . . ماذا نفعل فى قضية مثل قضية لوكهيد . . أليست هذه الأنواع الجديدة من السرقة فى حاجة إلى اجتهاد . .

وكيف نقطع اليد فى عشرة جنيهات ونعفيها فى عشرة ملايين ألا تكون فتنة وحضّ وتشجيع على هذه الأنواع من السرقات .

الاجتهاد إذن أمر حتمى واجب ولازم ولامفر منه مع النص وبدون نص .

والإسلام نفسه اجتهاد والإسلام حياة وفعل وتغيير وتكيف وتفكر وتدبر

وتأمل وسماحة وطلب للعلم من كل منابعه نأخذه من المؤمن والكافر . ألم نأخذ من الكافر الكهرباء والبخار والذرة والإلكترونيات والطب والكيمياء . . فأى غرابة فى أن نأخذ من أبن عربى وغيره مانجده مفيداً ونرفض مانجده منحرفا .

وقد سقط بعض الصوفية فى المغالاة والتطرف هذا صحيح ، ولكن سقط أيضا بعض علماء الشريعة فى التطرف والمغالاة والجمود والشكلية والمظهرية . . ولم تسلم كتبهم من المآخذ كما لم تسلم كتب الصوفية من المآخذ . . وخرج من هؤلاء فرق ضالّة منحرفة وخرج من أولئك فرق ضالّة منحرفة ، وأمامنا مافعله الخومينى وآياته فى إيران مثالاً حينما أسقط حكمًا ظالما وأقام فوضى شاملة أطلق فيها على الناس فرقًا مسلحة من الأولاد والصبية تهاجم البيوت وتروع الآمنين وتسجن وتعتقل وتقتل باسم الحرس الإسلامى وتنفيذ الشريعة . . وماهى بشريعة ولاهو بإسلام وإنما هى أهواء وأحقاد وغرام بالنكال والتنكيل على الناس تحت ستار الدين .

ولاأحب أن يفهم إخواننا من هذا الكلام أننا ضدّ فكرة الحكم الإسلامى أو سيادة شريعة الله . . فهذا غير صحيح . . والحكم الإسلامى أملنا وأمل كل مسلم وسيادة الشريعة حلمى وحلم كل مؤمن ، ولكن ماأطالب به وأشترطه هو الفهم وحسن التطبيق وإدراك المتغيّرات الجديدة والاجتهاد وعدم تعطيل العقل ورحابة الأفق وسعة الصدر والنظرة المستنيرة وعدم التعصب وعدم التحجير على الناس وعدم الجزافية فى رفض كل جديد . . وفى النهاية كل كتاب لأى طائفة يؤخذ منه ويرد ماعدا القرآن الذى تكفل ربنا بحفظه . فلم هذه الصيحات من هنا وهناك بإحراق الكتب

وتكفير الناس . . ولم كل هذا التربّص والترصّد من كل طائفة لطائفة . . حتّى لنكاد نوشك فى هذه الأيام أن ننقضّ على بعضنا البعض فى حرب أهلية يتمناها أعداؤنا من الشرق والغرب ويستدرجوننا لها بكل فنون المكر والمخادعة .

لقد اعترفنا ياقوم بأننا خطاؤون ولازمنا مراجعة النفس وتصحيح المسار كل يوم . . وأين منكم من لايخطئ وهذه فرق تتارية تخرج من عباءتكم لتقتل وتسفك الدم باسم أقدس ماتنادون به .

لقد صدق رسولنا عليه الصلاة والسلام حينما قال : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق » .

فلنأخذ بهذه السنّة الحميدة . . سنّة الرفق والترفّق واللين والهوادة والحلم والسماحة والعفو الصفح وسعة الأفق ورحابة الصدر ، فإن من يبحث فى حقيقة الدين ويطلب جوهره . . لايطلب شيئا هينا بل يطلب شيئًا كبيرًا بعيد المنال . . . والسير على هذا الدرب لاتنفع فيه العجلة ولاإطلاق الهتافات . . فالدرب متين ولابد من السير برفق لمن يريد أن يصل إلى شىء .

مسرح العرائس

أشعر بالندم ياإلهى حتى نخاع العظم من أنى ذكرت سواك بالأمس وهتفت بغير اسمك وطافت بخاطرى كلمات غير كلماتك .

سمحت لنفسى أن أكون مرآة للسراب ومستعمرة للأشباح .

جهلت مقامى ونزلت عن رتبتى وترجلت عن فرسى الأصيلة لأركب توافه الأمور ولأمشى مع السوقة وأزحف على بطنى مع دود الأرض .

خدعنى شيطانى واستدرجنى إلى مسرح العرائس الذى يديره والى تماثيل الطين والزجاج والحلى المزيفة .

استدرجنى إلى بيوت القماش وقصور الورق وقدمنى إلى ناس يبتسمون للمصلحة ويحبون للشهوة ويقتلون للطمع ويتزاوجون للتآمر . . رجال وجوههم ملساء مدهونة ونظراتهم خائنة ولمساتهم ثعبانية ونساء تغطيهن المساحيق فلاتبدو ألوانهن الحقيقية بشرتهن مشدودة ووجوههن مكوية

وخطواتهن حربائية وأيديهن تتسلل إلى القلوب يسرقن كلّ شيء حتى الحقائق .

عالم جذاب كذاب يضوع بالعطور ويبرق بالكلمات . . عالم لزج معسول تغوص فيه الأرجل كما يغوص النمل فى العسل حتى يختنق بحلاوته ويموت بلزوجته .

والأصوات فى هذا العالم كلها هامسة مبللة بالشهوة تتسلل إلى ماتحت الجلد وتخترق الضمائر وتأكل الإيمان من الجذور .

تذكّرتك يارب وأنا أمشى فى هذا العالم فشعرت بالغربة والانفصال ولم أجد أحداً أكلمه ويكلّمنى وأفهمه ويفهمنى . . نبذونى كلّهم ورفضونى كما نبذتهم ورفضتهم . . وأحسست بنفسى وحيداً غريباً مطرودا . . ملقى على رصيف أبكى كطفل يتيم بلا أم .

وسمعت فى قلبى صراخاً يناديك .

كانت كل خليّة فى بدنى تتوب وتثوب وترجع وسمعتك تقول فى حنان . . لبيك عبدى . .

ورأيت يدك التى ليس كمثلها شىء تلتقطنى وتخرجنى من نفسى إلى نفسك .

واختفى ديكور القماش والورق وذاب مسرح الخدع الضوئية .

وعاد اللاشىء إلى اللاشىء .

وعدت أنا إليك

سبحانك

لا إله إلّا أنت

ولاموجود سواك

القرب منك يضيف

والبعد عنك يسلب لأنك وحدك الإيجاب المطلق

وكل ماسواك سلب مطلق

علمت ذلك بالمكابدة وأدركته بالمعاناة وعرفته بالدم والعرق والدموع ومشوار الخطايا والذنوب وأنا أقع فى الحفر وأتعثر فى الفخاخ . . وكلما وقعت فى حفرة شعرت بيدك تخرجنى بلطف وكلما أطبق علىّ فخّ رأيتك تفتح لى سبيلا للنجاة . . وكلما وضعونى فى الأغلال وأحكموا على الوثاق شعرت بك فى الوحدة والظلمة تفكّ عنى أغلالى وتربت على كتفى فى حنان وإلهامك يهمس فى خاطرى . . أما كفاك ماعانيت ياعبدى.

أما اتعظت . . أما اعتبرت . . أما جاء اليوم الذى تثبت فيه قدمك وتستقر خطاك على الطريق .

فأقول باكيًا .

سبحانك يارب وهل هناك تثبيت إلّا بك وهل هناك تمكين إلّا بإذنك .

أنت وحدك الذى أصلحت الصالحين وثبّتّ الثابتين ومكّنت أهل التمكين .

تعطى لحكمة وتمنع لحكمة ولاتُسأل عمّا تفعل

شفيعى إليك صدق

وعذرى إليك حبّى للحقّ

وذريعتى إلى عفوك رغبتى فى الخير .

فمن خطيئاتى نبتت الحكمة كما تنمو أزهار الياسمين من الأرض السبخة .

ومن دموع ندمى علّمت الناس فصدقونى حينما كلّمتهم لأنه رأوا كلماتى مغموسة بدمى

ومن عثراتى وسقطاتى أضأت مصباحاً هاديا يجنب الناس العثرات .

وكل من عبر طريقى قلت له كلمة صدق ودللته على السلامة .

رب ماأتيت الذنوب جرأةً منى عليك ولاتطاولاً على أمرك وإنما ضعفًا وقصورًا حينما غلبنى ترابى وغلبتنى طينتى وغشيتنى ظلمتى .

إنما أتيت ماسبق فى علمك وماسطّرته فى كتابك وماقضى به عدلك .

رب لاأشكو ولكن أرجو .

أرجو رحمتك التى وسعت كل شىء أن تسعنى .

وأنت الذى وسع كرسيّك السموات والأرض .

فهرس

رقم الإيداع	١٩٨٣/٣١٧٠
الترقيم الدولى ٩٧٧-٠٢-٠٤٩٩-٤	ISBN

١/٨٢/٨١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

